الفصل الأول

الخطابة العربية قبل الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية العربية قبل الإسلام

كان العرب قبل الإسلام أميين في الأغلب لا يقرأون ولا يكتبون، الا ان هذا لا يعني ان القراءة والكتابة كانت معدومة، بل موجودة في البادية والمدن. ولقد نزل القران بهذه اللغة فتعززت بالإسلام، وأصبحت لغة الدين والدولة فلم تقف بوجهها لغةُ في أي بلد وصله العرب شرقا وغربا فغدت وعاء الثقافة والحضارة العربية والإسلامية وبها كتبت العلوم على اختلاف أنواعها والأدب بأنواعه واشكاله، فضلا عن المواثيق والعهود سواء بين الحكام العرب، أم الحكام الاعاجم من المسلمين وغير المسلمين. وكانت للعرب معارف لا ترقى الى درجة العلوم حصلوا عليها بالملاحظة والتجربة اليومية، وتناقلوها جيلا بعد جيل، مثل معرفة النجوم وهذا لا يعني ان هناك دراسات او معرفة منظمة في علم الفلك بل كانت معلوماتهم بسيطة تعتمد على النظر والمشاهدة اليومية وعرفوا المدارك الفلكية وأسماء الكواكب والنجوم لحاجتهم إليها في أسفارهم وسط الصحراء القليلة المعالم لكي يهتدوا بواسطتها، ومن أجل تحديد المواسم والاعياد ومواعيد تجارتهم[1]

و كذلك سموا أولادهم باسماء النجوم فسموا بدرًا وقمرًا وهلالاً والزبرقان وعطارد وزهرة وسهيلا والثريا وغيرها فوردت في شعرهم كقول أمرئ القيس[2]

كأنَ الثريا علقت في مصامها

بأمراس كتان الى صم جندل

---

[1] ينظر: فروخ ،عمر ،(الدكتور)، تاريخ الجاهلية، ط1 ،دار العلم للملايين ، (بيروت ١٩٨١) ص١٤٩

[2] ينظر: أمروَ القيس، امرئ القيس بن حجر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن الحارث (ت سنة ٨٠ق هـ/ ٥٤٥م) ديوان امرئ القيس، دراسة وتحقيق: أبو الفضل ابراهيم، ط٢، دار المعارف، (مصر، ١٩٦٤م) ص١٩

وأدرك العرب قبل الإسلام/ أن السنة القمرية اقصر من السنة الشمسية وانها لا توافق اختلاف الفصول الاربعة فأوجدوا النسئ أي (الكبس) وهو زيادة شهر قمري على كل ثلاث سنوات؛ إلا أنهم لم يحافظوا على النسئ في أوقاته الصحيحة فاضطرب التقويم، فاصبحوا يقدمون أو يؤخرون في الاشهر الحرام، فلذلك حرّمه الإسلام كما في الآية الكريمة (انما النسئ زيادة في الكفر)[1]، وقد عرفوا بعض الامور الطبية نتيجة لتجربتهم الحياتية والحاجة الى العلاج، فضلا عنِ الملاحظة الشخصية كما عرفوا أمراض الحيوان لاسيما الجمال والخيل فكانت نهم خبرة باجزاء جسمها وعلاجها وما يصيبها من أمراض، وقد ذكر الجاحظ في كتابه أمورا عن معرفتهم بالبيطرة[2]. ومن معارف العرب التي اكتسبوها في حياتهم ونتيجة لبيئتهم الفراسة والقيافة؛ أما الفراسة فهى معرفة الانسان من حيث أخلاقه وطباعه من خلال النظر الى شكل الانسان وصفات ملامحه وأعضائه، والقيافة تتبع الأثر في الارض لمعرفة آثار الانسان والحيوان لمعرفة أثر من ظل عن طريق القافلة أو طريق عدوهم. فضلا عن عنايتهم بالانساب سواء كان ذلك للانسان ام للجمل. ولقد اشتهر من نسابيهم دغفل[3] بن حنظلة الشيباني، وأبو اياس النصري، وعطارد ابن حاجب بن زرارة كما عرف الخليفة الراشد ابو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه بعلمه بالانساب والأيام[4] . وقد دلل العرب على معارفهم التي حصلوا

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٣٧

(٢) ينظر: الجاحظ ، أبو عثمان ، عمر بن بحر بن محبوب الكناني (ت٢٥٥ هجري/ ٨٦٨م) كتاب الحيوان ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،ط٣ ، مكتبة المثنى ، (بغداد ،١٩٦٩) ج٦ ، ص٢٩ . ابن خلدون ، عبد الرحمن الحضرمي ، (ت٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م). المقدمة ، (بيروت ، ١٩٨٨ م) ص ص٩١٨ –٩١٩

(٣) ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ج١ ، ص٢٨١ فما بعدها

(٤) ينظر: ابن عبد البر ، أبو عمرو يوسف بن عبد الله (ت٤٦٣هـ / ١٠٧١م) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة النهضة ، (مصر ، د. ت) ج١ ،ص٢١٨.

عليها حسبما اسلفنا بالملاحظة والتجربة اليومية بحِكَمِهم التي صاغوها وتناقلتها الأجيال، وقد حفظت لنا كتب الامثال والحكم طائفة منها مثل كتاب (جمهرة الامثال) للعسكري، (ومجمع الامثال) للميداني و(المستقصى في الامثال) للزمخشري. هذا فضلا عما ورد في اشعارهم مما يستشهد بها الناس في كل زمان كحكم [1] زهير بن أبي سلمى ولبيد العامري وطرفة بن العبد البكري وحكيم الصحراء واشهر خطباء العرب اكثم ابن صيفي. فضلاً عن ذلك فان للعرب أسواقاً قبل الإسلام تعقد في اوقات معينة من السنة لكي يعم السلام فاتخذوا أربعة اشهر حرم من السنة، ثلاثة منها متوالية، وهي ذو القعدة و ذو الحجة و محرم ثم شهر مفرد يأتي بعد المحرم بخمسة اشهر وهو رجب لا يكون فيها قتال. وهذا مما يخفف القتال[2] والعداوة بين القبائل مرتين في كل عام، وأشهر الاسواق سوق عكاظ في مكان يسمى نخلة على مقربة من مكة، أما بقية الاسواق فهي دومة الجندل والمشقر وهجر وعدن وصفاء والرابية وذي المجاز وذبا وصحار فيكون مجموعها عشرة[3] . ومن صور الحضارة العربية قبل الإسلام البناء الاجتماعي الذي يتكون من وحدات تسمى كل منها القبيلة وكانت هذه القبائل منتشرة في البوادي والقرى والمدن وهي جماعات من الناس ينتمون الى أصل واحد إلا ان وحدات القبيلة كانت تتخلخل بعوامل مختلفة اذ لم يكن المجتمع العربي القبلي انذاك انطوائيا ولا منعزلا في الجزيرة العربية ولا اطرافها، بل كانت القبائل مجموعة متحركة لا تكاد تتخذ شكلا معينا حتى يعرض لها من ضرورات الصلة ومصالح الجوار مكان لهذه الحركة التي سادت حياة العرب قبل الإسلام أثر في الحياة اللغوية والأدبية وفيها الخطابة. فمن المؤكد ان نقلة الافراد وهجرة القبائل وائتلافها في أحلاف متعددة لم يكن من

---

(1) ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ج١،ص٣٦٥ ، الجبوري ، يحيى ، الجاهلية ، ص٩٩

(2) ينظر: فروخ ، عمر ، (الدكتور) ، تاريخ الجاهلية ، ص١٦١

(3) ينظر: علي ، محمد الكرد، الإسلام والحضارة العربية، ط١، (بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨)، ج١، ص ص١٢٠-١٢١

الامور العارضة التي لا تترك اثارها العميقة من لهجات هذه القبائل وفي تقريب واضح بين اللهجات، اضافة الى ان حركة، القبائل هذه أثرت في الأسواق ومواسم الحج ومواسم التجارة مما يؤدي الى التقارب اللغوي بين هذه القبائل ثم الانصهار بين هذه القبائل عند حركة التحرير أي الفتوحات الإسلامية بعد مجيء الإسلام[١] فضلا عن أمور أخرى كانت لها أهميتها في وحدة العرب لغويا وجنسيا ودينيا وهي:

(١) الزواج فقد يتزوج رجل بامرأة من قبيلة أخرى وهذا ما حصل كثيرا وأكده القران الكريم (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير)[٢]

(٢) النقل فقد ينقل رجل من قبيلة نسبه الى قبيلة أخرى.

(٣) الاستلحاق ، قد يكون للقبيلة عبيد من العرب او غير العرب فيزوجوه من نسائهم وقد يكون لرجل عربي جواري غير عربيات فيلدن له فيلحق أولاد تلك الجواري بنسبه.

(٤) بالولاء قد يحتاج رجل الى حماية فيلجأ الى قبيلة قوية فيصبح مولى لها ثم يدخل نسبه مع الأيام في نسبها.

(٥) بالحلف قد يتحالف فريقان من قبيلتين و يتعايشان ثم يصبحان مع الايام كانهما قبيلة واحدة و يدخل نسب القبيلة الاضعف الى نسب القبيلة الاقوى[٣]. وكان الذي يجمع بين أفراد القبائل هو الشعور بالصلة و فائدة التعاون على تحصيل الرزق ورد العدوان الذي يحصل على إحدى القبيلتين ونيل الحكم بينهما مما يؤدي الى زيادة عدد أفراد القبيلة ومن ثم تزداد قوتها.

---

[١] ينظر: فيصل، شكري ، المجتمعات الإسلامية الاولى ، ص ص٢٢-٢٩

[٢] سورة الحجرات آية رقم (١٣)

[٣] ينظر: علي ، جواد ، (الدكتور)، المفصل في تاريخ قبل الإسلام ط١ ، مكتبة النهضة ، (بغداد، ١٩٦٩)، جـ٧، ص ص٦-٩. فروخ ، عمر ، (الدكتور) ، تاريخ الجاهلية ، ص١٤٩

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسة للعرب في عصر ما قبل الإسلام، فقد كان على رأس كل قبيلة شيخُها وهو رجل تختاره القبيلة من بين أفرادها وتقدمه للرئاسة عليها ويتصف بمواصفات خاصة كونه كبير السن وذا حكمة وشجاعة وذكاء ووفاء وتضحية وثروة فضلا عن شرف أصيل، ورئيس القبيلة هو قائدها في الحرب، والخطيب هو لسان حالها.

أثر الخطابة في عصر ما قبل الإسلام

من خلال دراسة الخطابة والتعرف على اشهر خطباء العرب قبل الإسلام والمواضيع أو الاغراض التي تناولتها خطبهم نجد ان هذه الخطب كان لها اثر كبير في وحدة وتماسك القبيلة وتعاونها وقوتها وهيبتها امام القبائل الاخرى، او الأقوام المجاورة للعرب في ذلك الوقت، وهذه الخطب سواء كانت خطبا طوالا، أو قصاراً فعلى الرغم من تعدد انواعها، وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة، او الوفادة، او المناظرات، او المفاخرات او قسما منها كان هدفها الدعوة الى الإسلام ونبذ الخلافات والغاء الحروب، والدعوة الى السلْم، وكذلك كان للخطبة اثرها في التماسك الاجتماعي، وخاصة في الزواج سواء كان زواج اشرافهم ام ابنائهم فتؤدي الى تماسك الأسرة و وتعطي للمرأة أحياناً الشرف الكبير لان ترتبط برجل من قبيلة أخرى. وكانت الخطب في الأسواق ذات هدف سامي وشريف لان الخطباء يقومون بالنصح والارشاد والتوجيه فهم ينصحون قومهم ويرشدونهم وينصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين والكف عن الحرب و اراقة الدماء. فكان الخطباء يدعون الى الصلح واصلاح ذات البين وأن تضع الحرب اوزارها وكذلك يخطبون في وفادتهم على الأمراء، اذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة، أو المناذرة، فيحييه متحدثا بلسان قومه، ويدعمون رئيس القبيلة ويقوون[1]

---

[1] ينظر: الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٣م). تاريخ الرسل والملوك ، . تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، (مصر،١٩٧١م) القسم الأول ص١٧١١.

مركزه الأجتماعي والسياسي بين قبيلته. وكان من عادة العرب وخصوصا في خطب النساء يلقي الخطيب خطبته بهذه المناسبة، فيقول الجاحظ من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب[1] . وكان الخطيب احيانا يرد على من يتعرض في خطبته الى أعراض الناس فنبذوا هذا السلوك المنحرف وردوا على مثل هذه الخطب التي قد تظهر في مجتمع قبلي معين وبذلك تنحسر هذه الخطب ويقضى عليها ولا تشيع بين الناس، لان العربي يأنف ويحتقر من يتعرض لإشاعة الفاحشة في اي قبيلة. ويرفضون ذكر مثالب القبيلة الأخرى حتى وان كانت مخالفة لهم وبينهم ثأر أو خلاف. وهذا هو دور الخطيب الملتزم الذي يبني القيم والعادات الحسنة في قبيلته ويرفض قطعا ما يخالف العرف العام. وقد تصدى الخطباء لمثل هذه الحالات التى تؤدي الى افساد المجتمع وقضوا على الرذيلة واقاموا الفضيلة في المجتمع المكي او مجتمع المدينة أو اطراف الجزيرة. فهم يرفضون ما يسيء الى الجوار ويهتمون بالأعراض ويحمونها ويحافظون عليها، وهذه من عادات العرب النبيلة في عصر ما قبل الإسلام فكانوا يوظفون خطبهم في خدمة القبيلة وافراد القبيلة وتماسك القبيلة ويقيمون علاقات اجتماعية طيبة وحسنة مع القبائل الأخرى.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م). الأغاني ، تحقيق : عبد الستار احمد فراج ، دار الثقافة ، (بيروت، ١٩٥٦م)جـ٤، ص١٤٦

[1] الجاحظ ،البيان والتبين جـ١،ص١١٦

المبحث الثاني

الخطبة – تعريفها – قيمتها – أغراضها – أنواعها – أجزائها

الخطابة في اللغة اسم مصدر مشتق من الفعل خطب على وزن فعل فعيل. وقد عرفها صاحب لسان العرب[1] لمؤلفه ابن منظور، وكذلك المنجد في اللغة والأدب والأعلام، ومختار الصحاح[2] لأبي بكر الرازي وغيرهما في مادة خطب، وخاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وخطب على المنبر خُطبةً بضم الخاء وخطابةً ويخطُبُ بضم الطاء فيها واختطب، وخطب من باب ظَرُفَ صار خطيباً. فهي إذاً عند اللغويين: هي اسم للكلام أو الكلام المنثور المسجع ونحوه، وهكذا عرفها اللغويون. اما علماء المنطق فقد عرفوها بما يأتي: هي صناعة علمية يمكن بسببها اقناع الجمهور في امر يتوقع حصول التصديق به قدر الامكان. وبنفس المضمون لهذا التعريف عرفها الرضا مظفر في كتابه المنطق والخطيب عند علماء اللغة هو: ناقل الكلام أو حسن الخطبة، ويتوخى من الخطابة تهيئة النفوس لقبول ما يريد اقناعهم به، ان مضمون هذه الجمل يوضح لنا معنى الخطابة والخطيب الذي نريد ان نلح منه، ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدنا لفظة الخطابة قد وردت في قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [3] فالخطيب هو رجل الخطبة، والتي تتألف من ثلاثة عناصر: هي المقدمة والعرض والخاتمة. ويعرفها الدكتور أحمد محمد الحوفي أستاذ الأدب العربي في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة بالأزهر (هي فن مشافهة الجمهور

---

[1] ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علّى الانصاري (ت٧١١ هـ/١٣١١ م) لسان العرب ، تحقيق يوسف خياط ونديم مرعشي طبع دار لسان العرب ،(بيروت ، ١٩٦٨م). م١، ص ص٣٦٠- ٣٦١

[2] ابو بكر الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد سنة ٦٩١هـ / بعد سنة ١٢٩١م)، مختار الصحاح ، المكتبة الأموية ، (دمشق، ١٩٧٨م) ، ص١٨٠.

[3] سورة الفرقان آية رقم ٦٣

واقناعه واستمالته). [٢]فلابد من مشافهة، والا كانت كتابة أو شعرا مدونا ولابد من جمهور يستمع والا كان الكلام حديثا أو وصية ولابد من الإقناع وذلك بان يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما أعتقده. واقصد بالإقناع ذلك النوع الخطابي المؤثر. ولابد من الاستمالة والمراد بها ان يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء سارًّا أو محزنا مضحكا او مبكيا، داعيا الى الثورة أو إلى السكينة. وهذه هي أسس الخطابة. في كل عصر وزمان من نشأتها وتطورها وازدهارها في عصورها المختلفة الى يومنا هذا مشافهة، وجمهور، وإقناع، واستمالة وقد عرفها الدكتور مصطفى جواد في كتابه الأساس في تاريخ الأدب العربي بانها[١] بأنني هي مخاطبة جمهرة من الناس في شأن من الشؤون الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، بكلام فصيح جليل المعاني، ويستثير العقول ويستميل القلوب، كما عرفت الخطابة قديما بأنها[٢] (فن الاقناع، ولا يقصد بالاقناع مجرد الاقناع العقلي القائم على المنطق وحده، كما هو الشان في العلوم الطبيعية والرياضيات، انما هو الاقناع الممزوج بالعاطفة واثارة المشاعر).

ثم ان هناك تعريفاً آخر للخطابة، اذ يعرفها الدكتور المرحوم نوري حمودي القيسي في (كتابه تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام)[٢] وأخوه الدكتور عادل جاسم البياتي والأستاذ الدكتور مصطفى عبد اللطيف بان الخطابة هي ظاهرة أدبية معروفة لدى جميع الامم فليس هناك من مجتمع لم يعرفها). وهو يسعى نحو تناميه واستكمال كيانه والاخذ بأسباب حضارته ومجده، سواء أكان ذلك المجتمع صغيرا أم

---

[٢] ينظر:الحوفي ،أحمد محمد ،(الدكتور)،فن الخطابة ،ص ص ٥-٦

[١] ينظر: الدكتور مصطفى جواد ، الأساس في تاريخ الأدب العربي ، ص ص٩٢ -٩٤

[٢] مجموعة من المؤلفين ، تاريخ الأدب العربي الحديث ،ص٢٣٣

[٢] ينظر القيسي ،نوري حمودي ،(الدكتور) مع اساتذه اخرون ، تاريخ الادب العربي قبل الاسلام ،دار الحرية للطباعة ،(بغداد ،١٩٨٧م)ص ص٣٦٠-٣٦١

كبيرا، كالمجتمع العربي الذي يسكن أكبر شبه جزيرة في العالم تضم إليها أطرافا بعيدة تضرب في عمق آسيا وتمسك من افريقيا بالرأس والعنق، وإذا أرادت أمة ان تفتخر بخطبائها وسحر لغتها فالعرب في هذه الامم، والعربية على رأس هذه اللغات. ولا تزال قصص الخطب التي فتحت مدنا بل بلادا وقارات باكملها تدور في ذاكرة البشر ترافقها صورة (حرق المراكب) من قبل القائد الخطيب ووضع المقاتلين أزاء الموت غرقا أو الهلاك عطشا في الصحراء أو النصر باقتحام العدو وهي معادلة صعبة.

قيمتها: الخطابة منذ كانت تعدُ سلاح المجتمع الانساني في سلمه وحربه وفي ترقيته والاسراع به نحو المثل الاعلى الذي يجب ان يقصد اليه. فليس بدعا أن كانت بلاغ النبيين الى أممهم في الاصلاح والتوجيه والارشاد ونشر الفضيلة والخير، والدعوة الى عبادة الخالق ونبذ عبادة المخلوق، والراح الذي يسكبه القواد في نفوس جنودهم قبيل المعركة فيسرعون باسمين إلى قتال أعدائهم، وغصن الزيتون يلوح به دعاة السلام في عالم كثر به العداء والخصام، والقوة الحاسمة التي يقود بها الزعماء والمصلحون الاجتماعيون أممهم إلى حياة أرقى وأبقى، ولسان الاحزاب السياسية تنشر به دعوتها وتظفر به على خصومها، ونورا يهدي القضاة الى العدالة وتبرئة المظلوم، والقصاص من الباغي. فهي عدة الزعماء والقادة والساسة. وتستند إليها الديمقراطية وتعتمد عليها الدكتاتورية، ويتسلح بها المؤتمرون في المحافل الدولية ويصعد عليها النواب، ورؤساء القبائل والقادة العسكريون الى قمة الشهرة وذيوع الاحدوثة، ويرتقي بها الدعاة الى الصيت الطائر. وقد روى لنا التاريخ صوراً كثيرة للقادة الخطباء من حرق المراكب ووضع المقاتلين أمام الموت أو النصر، فيجعل جيشه لا يملك امتياز الاختيار بل يرمي بنفسه في لهيب المعركة، ومن هنا تظهر بوضوح قيمة الخطابة. وقد عزا الباحثون هذه المواقف الخطابية العالمية الى العرب وخطبائهم يوم كانوا يهيئون للخطبة مناخا ملائما يثيرون فيه حماسة المقاتل مع الكلمة المقاتلة، والجو النفسي المناسب. فضربوا مثلا

بخطيب عربي ثائر قديم طرد المحتل من الجنوب العربي وهو سيف بن ذي[1] يزن، ومعد يكرب[2] ابن أبي مرة، وكان قد احرق المراكب بعد ان نزل بجنده على الساحل والقى خطبته ملتهبة فيهم ليحرر الأرض العربية من يد محتلها. وكذلك فعل خالد بن سلمة[3] المعروف بالسفاح لانه سفح روايا قومه وقال لهم: ان حالوا بينكم وبين الماء ظفروا بكم. وقد فعل ذلك لكي يجعلهم لا يعتمدون على مائهم ولكي يقتتلوا بشجاعة حتى لا يحال بينهم وبين الماء، ولم تصل لنا خطبة السفاح

وقد تأثرت أمم كثيرة بهذه المواقف الخطابية الذكية للقادة العسكريين العرب فاستلهموا منها روح المقاومة وقلدوا أصحابها في جميع العمليات الحربية فضمنوا لانفسهم نتائج الحرب وعليه فقد كان يلهب حماسة الناس، ويلعب بمشاعرهم

---

[1] سيف بن ذي يزن: هو سيف بن ذي يزن بن اصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري من ملوك العرب ولد بصنعاء وقتل سنة ٥٠ق هـ/ ٥٧٤م. ينظر: ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهبي النحوي (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٤ م) السيرة النبوية ، تحقيق : د. همام سعيد و محمد عبد الله أبو صعليك ، ط١، مكتبة المنار ، (الاردن ، ١٩٨٨ م) ، جـ٢ ، ص٢٢. ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت ، ١٩٦٧) جـ١ ، ص١٥٨

[2] معد يكرب بن أبي مرة: هو معد يكرب بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ملك جاهلي يماني ولد بمدينة قزة بحضرموت كان ملكا علّى قيس عيلان قتلته قضاعة وتوفي سنة ٦٠ ق .هـ ٥٦٥م ، (ينظر: ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد، (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م). المرزباني، أبو عبيدة محمد بن عمران (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، معجم الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي (دمشق، ١٩٦٠م) ص ٤٤٦ ،بن حزم، جمهرة انساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطابع دار المعارف، (مصر: ١٩٦٢م) ص٤٢.

[3] خالد بن سلمة السفاح: هو خالد بن سلمة المخزومي المشهور بالسفاح من قريش وهو من الخطباء المشهورين ، الجاحظ، البيان والتبيين ، جـ١،ص٣١٤ .

محولاً اياهم الى الموقف الذي يراه صحيحاً ومطلوباً فيستدر عطفهم ودموعهم، وقد يثير غريزة الثأر أو الانتقام أو يردهم الى انسانيتهم، فهو بذلك يشبه الشاعر في عمله واختصاصه، إلا أن الشعر اقترن بالحماسة أكثر من اقترانه بالمناسبات السلمية بينما اقترنت الخطبة بالحرب والسلم على حد سواء، بل كانت مهماتها السليمة تفوق كل انواع المهمات الأخرى في عصر ما قبل الإسلام. وقد استعان العرب بالخطبة لحاجة العرب يومئذ إليها والاستعانة بها، بينما أخذ تيار الشعر ينحسر أحياناً ويبرز دور الخطيب اكثر

أغراضها: كان العرب الخطباء يستخدمون الاسجاع عند المنافرة والمفاخرة، وكانوا يستعملون المنثور والمرسل في خطب الصلح وسلّ السخيمة، وعند المعاقدة والمعاهدة، وكأنهم عرفوا لونين من الخطابة لونا مسجوعاً ولونا مرسلا، وفي خطبهم المرسلة كانوا يعمدون الى ما يثير السامعين من كلم بليغ. وعليه فان الخطابة لها أغراض اجتماعية ودينية وسياسية وقبلية فقد كانت الخطابة تثير العزائم واستنهاض الهمم، ولهذا نجد ان الخطابة القبلية كانت تؤدي غرضها في خدمة أبناء القبيلة للدفاع عن حقوقهم وإعطاء أفراد القبيلة الدور البارز باعتبارهم عِلْية القوم، فتراعي في غرضها التي ترمي اليه خدمة أفراد القبيلة ومراعاة كل المناسبات الدينية وتحاكي طبيعة حياتهم، لان البدوي أو أي فرد في القبيلة يميل الى الحرية ويرفض الاستبداد والظلم والتعسف والاضطهاد. وأما أغراض الخطابة الدينية فقد كان للقران الكريم أثره العظيم في تطور الخطابة. أما قبل الإسلام فكان سجع الكهان منتشرا بشكل واسع وواضح في المجتمع. وكان الخطيب غرضه ان يخدم الطقوس الدينية التي كان يمارسها العرب قبل الإسلام ولما جاء الإسلام بدستوره العظيم القرآن الكريم كان له الاثر الكبير في تطور الخطابة، لان الخطباء أخذوا في محاكاة أسلوبه والاقتباس من آياته. والعوامل التي ساعدت على ازدهار الخطابة هي: العصبية القبلية والتمزق التي عانت منه العرب نتيجة للحروب الدائرة، وكان هذا أقوى سبب لكي يشمر الخطباء عن سواعدهم ويتفننوا في خطبهم لينجحوا في رأب

الصدع ولم الشمل وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف. وكذلك الحروب التي خاضها العرب الفاتحون. والقدرة على الارتجال في القول مما يهيئهم ذلك للنبوغ في الخطابة. ثم أصبحت الخطابة وهذا أحد أغراضها تميل الى الموعظة والارشاد بعد ان كانت تميل الى ايقاظ الهمم واشعال الحماسة في النفوس[1].

أنواعها :

أولاً : الخطبة الحماسية

وإذا كانت جميع انواع الخطب هدفها اثارة الحماسة والهاب شعور الناس وتوجيههم الى القضية، فان لفظة الحماسة هنا تعني نفس مدلولها القديم المختص بالمواقف القتالية والمشاهد الحربية كما عناها أبو تمام الشاعر العباسي في كتابه المشهور (الحماسة).

وإذا كان الشعر قد تهيأ له من أبي تمام رجل يهتم به ويصنفه وفق موضوعاته ويطلق على الكتاب اسم "الحماسة" مشيرا الى اكبر الأبواب فيه، فان النثر لم يتهيأ له من يجمع خطبهُ الحماسية وأسجاعه ومواعظه فيضعها في كتاب مستقل خاص بها. وتتسم الخطب الحماسية بسمات صارت فيما بعد سمات لكل انواع الخطب عدا (خطبة الأملاك) فقد جرى العرف في الخطب أثناء الحرب وقبل بدء القتال ان يخطبوا واقفين أو على صهوات خيولهم أو من فوق نشز من الأرض. وكان القائد أو الفارس يخطب وسيفه أو رمحه في يمينه، وربما استعاضوا عنها بحمل الراية التي تمثل رمز وكرامة العربي في ذلك الوقت، ويتبع ذلك ان يكون الخطيب في كامل زيه الحربي أو بزته العسكرية، قد غطت رأسه القلنسوة أو البيضة أو ما يضعه المقاتل على رأسه اتقاء ضربات السيوف، وقد يستعاض عنها بان يلتاث المحارب بعمة سوداء كانت العرب تحتجز بها أيام التراث، وكانت الخطبة الحربية

---

[1] ينظر : سلام، علي محمد، (الدكتور)، الأدب العربي في الاندلس وأشهر اعلامه، الدار العربية، (بيروت ١٩٨٩م) ص ص٤٤٥-٤٤٧ .

البليغة تؤدي مهمة الجحفل الزاحف في ترجيح كفة النصر كما رأينا في مطلع حديثنا عن حرق المراكب والقاء الخطب بعدها أو سفح المياه أو أية بادرة عسكرية يلجأ إليها القائد الخطيب، وقد كان الزعماء والقادة يتبارون بالخطب وسحر اللغة وروعة البيان وشدة اسر البلاغة وقوة المعاني قبل ان يتبارزوا بأسلحتهم، فمن حسنت خطبته وامتلك الأفئدة ببيانه وكان أحب من خصمه الى قلوب جنده كان النجاحُ عليه أسهلَ والنصرُ أقربَ، لذلك افترض في الفارس الى جانب قوة الجنان وحصافة الرأي واستخدام السنان ان يكون خطيبا وسليم اللغة قوي البيان. وتقتضي الخطبة ان يكون صوت الخطيب جهوريا مؤثرا حاضر البديهية مالكا لزمام نفسه، متجها نحو جنده أو قومه بجامع قلبه وعقله وكل جارحة من جوارحه، فلا يشغل وهو يخطب في شئ سواهم وسوى خطبته فلا يلتفت ولا يشغل يده بأمر خارج حدود خطبته، لان مثل هذا التصرف يفسد جو المناسبة ويبرد الحماسة، ولذلك مما يعاب على الخطيب ان يلعب بأصابعه أو يهرش بها رأسه أو يحك رأسه أو لحيته أو يكثر من رفع يديه أو كفه الى فمه أو انفه أو أذنه، كما يعاب على الخطيب ان التلعثم والارتعاش والتنحنح وتوسيع الأشداق وتهديل الشفاه[1].

وتتفاوت الخطب الحربية في طولها وقصرها من خطبة إلى أخرى بحسب المناسبة أو الموقف الذي يقرر الخطيب بمقتضاه كيف تكون خطبته إذ ليس طول الخطبة ولا قصرها هو الذي يحكم بجودتها وبنجاحها. يقول الجاحظ (اعلم ان خطب العرب من أهل المدن والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة ومُتشاكلاً في استواء الصفة ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد)[2] ثم يتابع الجاحظ فيقول (ووجدنا عدد القصائد أكثر، ورواة العلم إلى

---

[1] ينظر : د. مصطفى جواد وأساتذة آخرون ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ،ص٣٦٤ .

[2] الجاحظ ،البيان والتبيين ، جـ٢،ص٧ . ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ٤، ص٥٤ .

حفظها أسرع)[1] ومن خطباء الحرب المذكورين قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في داحس والغبراء النهار بطوله إلى الليل.

واستدل الباحثون المحدثون[2] من سياق الخطب التي ساقتها المصادر، وبالأخص الجاحظ، أن الخطب الحربية التي تتضمن حماسة وفخراً ومنافرة وثأراً يغلب عليها طابع السجع، ولعل ذلك يعود الى تشبثها بالأسلوب الشعري الذي يصلح للحماسة يومئذ اكثر مما يصلح لسواه، فقد قال هاني بن قبيصة الشيباني يحرض قومه يوم ذي قار (يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور. ان الحذر لا ينجي من القدر. وان الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحر أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر قابلوا فما للمنايا من بد)[3].

ثانياً: الخطبة الوعظية

وإما الخطبة الوعظية فيغلب عليها الطابع الديني حتى عندما يعظ الوالد ولده، أو الرجل أهله، أو الشيخ قبيلته. وان إضفاء صبغة الدين على الخطبة الوعظية الجاهلية يأتي من باب التجاوز، إذ لم يكن الوعظ في الجاهلية دعوة صريحه إلى التمسك بالوثنية، وانما كان دعوه إلى التمسك بالعدل وأخلاق العرب في المروءة ونصرة الضعفاء من الناس وإغاثة الملهوف ثم صفات الكرم والتضحية وإيثار الغير، وبعد ذلك هي دعوة استصغار أمر الدنيا والاستهانة بها والزهد فيها. وكان ذلك متمثلا في سجع الكهان، وإذا نحن تمثلنا واطلعنا على خطبة قس بن ساعدة[4] الايادي وهو يعظ الناس في سوق عكاظ وجدنا أن السجع في مثل هذه

---

(1) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ،جـ١،ص ١١٧ .
(2) د. شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، ص٤١٨ .
(3) أبو علي القالي ، الأمالي ،جـ ١ ، ص٩٢ .
(4) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني اياد المتوفي سنة ٢٣ق.هـ /٦٠٠م احد كلماء العرب ومن كبار خطباءهم في الجاهلية قال عنه النبي صلى الله عليه واله وسلم (يحشر أمة وحده) ، وَهُوَ من المعمرين، الجاحظ ، البيان والتبين ،جـ١ ،ص٣٦٥ ،ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني ، جـ٤ ، ص٤٠ ابن سيد الناس ، أبو الفتح بن محمد بن عبد الله ، (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م) عيون الأثر في فنون المغازي والسير ، مكتبة القدسي ، (القاهرة ١٩٣٧م)، جـ١ ص٦٨.

الخطب يظل بارزا في تضاعيف النص ليؤدي نفس مهمته التأثيرية، ويقال إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حضر الخطبة لقُس بن ساعدة الايادي وكان يومئذ فتى في مقتبل العمر. ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه قال أيضا :لست انساه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام مؤنق، فقال حين خطب فأطنب ورغب ورهب وحذر وانذر وقال في خطبته [1] (أيها الناس أسمعوا واعوا وإذا وعيتم فانتفعوا .....)

ثالثاً : الخطبة الموسمية

ونقصد بالخطبة الموسمية تلك التي تلقى في مواسم الحج او التجارة، ويكون موضعها في العادة أحد أسواق العرب السنوية التي تعقد في صور مهرجان أدبي وديني واقتصادي وسياسي عظيم. هذا الموطن الحقيقي للخطب الموسمية فان كانت قد القيت في موضع آخر غير الاسواق فهي تتناول نفس مناسبتها وأغراضها. وأهم أغراض الخطبة الموسمية هي الدعوة الى الصلح والسلم وسل السخائم من الصدور وعقد المعاهدات والأحلاف. ومن أغراضها كذلك فض الخصومات التي تنشا عن أرض أو مياه أو سلع أو تجارة وكل ما يتعلق بالبيع والشراء، وكذلك ما يتعلق بالمنافرات والمفاخرات والحوار الذي يجري على ألسنة رجال العرب البارزين وأدبائهم المرموقين، وقد سبق ان استشهدنا بخطبة قُس ابن ساعدة التي ألقاها في سوق عكاظ. وقد كان في عكاظ منابر للخطب في الجاهلية يقوم عليها الخطيب ليجهر بخطبته معددا فعاله ومآثره وأيام قومه من عام الى عام إذا أخذت العرب تعدد أيامها وفخرها[2]. ولم تكتف العرب بحل منازعاتها في عكاظ عن

---

[1] ينظر: الجاحظ ،البيان والتبيين ، جـ٢ ، ص١٢٠،ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية في التاريخ، ط١، دار المعارف (القاهرة، ١٩٧٠م) جـ٢ ، ص٢٣٥ .

[2] المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، طبع حيدر أباد ، (أيران ،١٣٣٢هـ)، جـ٢،ص١٧٠

طريق الخطب بل كانت تكتب ما يلقي في السوق كالصحيفة التي كتبها عمر بن الشريد السلمي منح بموجبها معمر بن الحارث العذري جدَّ الشاعر الغزلي المعروف بجميل بثينة مكافأة حيث دعا بكاتب وصحيفة وكتب ذلك العهد المذكور في كتاب (الأزمنة والأمكنة) [1] للمرزوقي. أما المنافرات والمفاخرات فقد كانت تجري بين خلق من العرب وكان يقوم بين المتنافرين حَكَمٌ يقضي لأحد المتنافرين بالفضل على صاحبه فإذا انفر الحاكم أحدهما على صاحبه، وقضى عليه بالغلبة أخذ القوم بحكمه كالذي جرى في مفاخرة عبد المطلب[2] بن هاشم وحرب بن أمية، وكان الحكم فيها نفيل بن عبد العزي، ومفاخرة عبد المطلب والثقفين والحكم فيها عزي سلمة الكاهن[3]، ومنافرة عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع حرب بن أمية عند الملك النجاشي وكان الحكم بينهما هرم بن قطبة الفزاري، ولكنه لم يحسم المنافرة لصالح الطرفين فجاء نفيل بن عبد العزى بن رياح جد عمر بن الخطاب رض الله عنه وأرضاه فقال لحرب بن أمية: يا ابا عمرو أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأقل منك ملامة وأكثر منك ولدا وأجزل صفداً[4] وأطول منك مذودا واني لا أقول هذا وانك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة[5]، جليل العشيرة ولكنك نافرت منفرا[6]

فغضب حرب وقال (أن من انتكاس الزمان ان جعلت حكما). وقد ترد

---

(1) م . ن ، جـ٢ ، ص١٦٨- ١٦٩

(2) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ،جـ٢،ص٦

(3) الميداني ، محمد أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن أبراهيم النيسابوري مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ،(القاهرة ، ١٩٥٥ م) جـ١، ص٣٠

(4) الصفد بمعنى العطاء وقيل بمعنى القيود إذا شده وأوثقه ، ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، باب صفد ، ص٣٦٤

(5) المريرة بمعنى الشكيمة والعزيمة ، ينظر: م.ن ، ص٣٦٤

(6) ينظر:ابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ٢ ، ص٦

المفاخرة في ظروف المنافرة نفسها لكنها دونها في الأهمية لانها لا تعتمد على الحكم بل تكون عنوا مثل مفاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان لدى أحد ملوك اليمن[١]. وقد كانت المنافرة تنتهي بحصول أحد الطرفين على السبق الذي يقال له المنافرة. وكان الحاكم يأخذ النفارة من المتنافرين على حد السواء وهي نوع من أساليب الحكم المعتمدة قبل الاسلام. ويبدو أيضا من تفسير المعجمين العرب الأوائل لكلمة المنافرة بمعنى المفاخرة انها أمست ضربا من انواع القمار في أخريات الجاهلية، لذلك أدرجها الإسلام في قائمة الممنوعات فقد رفضها الإسلام ومنعها.

وأما نماذج الحوار القصير السريع الذي يجري بين الرؤساء أو رجال الفكر والسياسة يومئذ من مظاهر النشاط الذهني فهو يختلف جدا عن المنافرة وينم عن حس لغوي مرهف، وذوق أدبي رفيع، في آن واحد. وقد نقل الرواة والأدباء في كتبهم فيضا منه يصلح لان يجمع ويحقق ويدرس دراسة مستحدثة، كالحوار [٢] الذي دار بين النعمان بن المنذر وبين ضمرة بن ضمرة وهو أحد خطباء العرب، وكذلك الحوار الذي دار بين عمر بن الأهتم المنقري وكان أخطب أهل زمانه وبين الزبرقان بن بدر وكان معروفا بتقديس العرب له حتى ان قومه ضربوا له يوما قبة من العمائم. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم سأل عمرو بن الأهتم المنقري عن الزبرقان بن بدر فقال عمرو (مانع لحوزته مطاع في أدنيه فقال الزبرقان أما انه قد علم اكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو أما لئن قال فوالله ما علمته الا ضيق الصدر زمر المروءة[٣] لئيم الخال حديث الغنى. فلما رأى عمر انه قد خالف قوله الاخر قوله الأول ورأى الانكار في عيني رسول الله قال يا رسول الله رضيت

---

[١] ينظر: أبو علي القالي ، الأمالي ،جـ١،ص٧٢

[٢] ينظر:الجاحظ، البيان والتبين ،جـ ٢ ، ص١٧١

[٣] زمر ، بمعنى قليل والزّمر بمعنى الجماعات ، ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ،ص٢٧٤. ابن منظور، لسان العرب، م٤ ص٣٢٩ .

فقلت أحسن ما عملت وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا[1].

ومما يلاحظ على الخطب الموسمية ان الخطيب فيها استعاض عن السيف بالعصا أو المخصرة ليس على سبيل شيء سوى تقليد ذلك النوع من الخطب الحربية أو الحماسية والايماء الى أصلها، وذلك ان الخطيب لما وجد ان ابقاء الكف الخالية قد يسبب له احراجا او اشغالا ليديه في أمور مستهجنة اجتماعيا ولا يقبلها جمهور الحاضرين كمسح الخطيب لشاربيه أو حك ذقنيه أو جوارحه فرأوا أشغال اليد بشيء أفضل من تركها خالية وارتأوا ان في العصا او المخصرة تلميحا الى الاصل وهو السيف أو الرمح، فكان الخطيب يستعين بها في الاشارة وينقلها من كف إلى كف وَهُوَ يخطب، وَهُوَ إلى جانب ذلك كان يكثر من حملها معه عند دخوله السوق أو السير في الطرقات علامة له فكان يعرف بها. واضاف الجاحظ في رده على بعض من عاب على العرب حمل العصا في خطبهم سببا آخر الى ما ذكرناه فقال[2]: ان حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للاطناب والاطالة وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب اليهم حتى ليذهبون في حوائجهم والمخاصر في أيديهم الفالها وتوقعا لبعض ما يوجب حملها وللاشارة بها.

ولم يستحسنوا قيامهم بالخطبة حاسرين فتعارفوا على لبس العمائم عَلى الرؤوس في اثناء خطبهم، وتعارفوا أيضا ان يخطبوا من فوق نشز من الأرض أو عَلَى ظهور رواحلهم، وهي تقاليد من الخطب الحربية حيث الخطيب المقاتل عَلَى صهوة جواد وغطاء الحرب فوق رأسه، ولم يلتزموا في الخطب الموسمية بأسلوب السجع المتبع في وعظ الكهان بل استساغوا الأسلوب المرسل، إلا في حالة

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ١ ، ص٥٣

(2) ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ٢ ، ص١١٧

المنافرات، فقد استخدموا السجع بجمل طويلة وعباراته الواضحة المفهومة وكذلك في بعض الخطب، اذ سرعان ما يعود الخطيب إلى الاسترسال فهو واقع عفو الخاطر لسجع الكهان، ذي الجمل القصار والفقرات الغامضة المقتضبة والذي يقصده الكاهن قصدا.

رابعاً : الخطبة الرسمية

ولم يتأيد لنا في الخطابة الرسمية، ان الخطيب كان يتبع بها نفس أسلوب الخطبة الموسمية لان هذا النوع من الخطب يلقى على مسامع الجمهور من أرباب امورهم من الملوك والرؤساء في الاغراض السياسية، او تلقيه من قبل الوفود او رسل الملوك والرؤساء الى اندادهم كالوفد الذي أرسل به العرب الى الملك اليماني سلامة ذي فايش[١] ووفدي العرب على كسرى[٢] ووفادة عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة[٣] ووفادة ضمرة بن ضمرة على الملك النعمان بن المنذر[٤]

وهذا مثال من خطبة رسمية ألقاها أحد أشراف العرب بين يدي الملك سلامة ذي فايش و كان قد نشأ له ابن كأكمل ابناء المقاول وكان مسروراً به، فركب ذات يوم فرسا صعبا فكبا به فرسه فوقصه فجزع عليه أبوه جزعا شديدا، وامتنع عن الطعام واحتجب عن الناس، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه، فقام خطباؤهم يواسونه وكان في القوم الملبب بن عوف بن سلمة بن عمرو الجعفي فقال (أيها الملك ان الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ وتجمع لتشتت وتحلي لتمر،

---

[١] ينظر : ا ابو علي القالي ،ا لامالي ، ج٢ ، ص٩٩

[٢] ابن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ، ج١، ص١٠١ . أبو الفرج الاصفهاني ،الاغاني ، ج١٧ ، ص١٠٥

[٣] ينظر:ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص١٠٧

[٤] ينظر: الميداني ، مجمع الامثال ، ج١ ، ص١٨٦

وتزرع الاحزان في القلوب بما تفاجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطئتك جلل ما لم تدن الأجل وتقطع الأمل، وان حادثا ألمّ بك فاستبد باقلك وصفح عن اكثرك لمن أجلّ النعم عليك وقد تناهت إليك انبا رقنْ رزء فصبر وأصيب فاغتفر اذ كان شوى[1] فيما يرتقب و يحذر فاستشعر اليأس عما فات إذا كان إرتجاعه ممتنعا ومرامه صعبا فلشيء ما ضربت الأسى وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء)

خامساً : خطبة الأملاك

واما خطبة الأملاك فهي تطول وتقصر بحسب مقتضى الأمر، تلقى في مناسبة سعيدة لدى جميع البشر وهي ساعة يختار الانسان شريك العمر، ورفيق الرحلة في هذه الحياة، وقد أعتاد العرب قبل الإسلام إذا اراد أحدهم ان يتقدم لخطبة فتاة ان يفصح عن ذلك امام أهلها او أوليائها بكلمة يضعها بين يدي حاجته يبرز فيها قدرته على النطق وسلامة العقل، وحسن التوجه في ايصال الامر، وايضاح الحال أمام المعنيين كي يبرهن بها على فطنته وذكائه ويكشف بها عن شجاعته وشرف أصله ونبل محتده ومدى إيمانه بما يقدم عليه وحبه لمن يريد ان يصهر إليهم وإعجابه باخلاق من يختار، وهذه المعاني التي ذكرناها هي المطلوبة من الخطيب ساعة الخطبة، لذلك نحن نرجح ان كلمة (الخِطبة) بكسر الخاء و(الخاطب) و(المخطوبة) تعود الى الجذر القديم للخطبة التي تعني القاء كلمة مناسبة لمقتضى الحال، ثم صارت اصطلاحا لهذا العرف الاجتماعي النبيل والذي يدل على أصالة في بناء المجتمعات الانسانية المتقدمة، لان الاهتمام في مثل هذه الاعراف والعادات ولاسيما ما يتعلق بين الرجل والمرأة دليل على رقي النفس البشرية واحترامها للعلاقة المقدسة بين الجنسين .

---

[1] شوىٰ، بمعنى هين أو يسير والشوى أيضاً رذال المال. ينظر: أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٣٥٢ .

ولم يشترطوا في الخطيب ان يخطب بنفسه، بل صوغوا له ان ينيب عنه من يخطب بدلا منه عندما يكون هذا البديل شخصا من أهل الخاطب، أو من أقربائه الادنين فان لم يتيسر ذلك فقد أوكلوا الأمر إلى كاهنة أو شيخ قبيلته أو رئيسه، وهذا كله من قبيل التسامح في هذا المظهر الاجتماعي الرائع لكي يذللوا كل عقبة في وجه اجتماع الناس على الشرف والكرامة الانسانية دون التقيد بالشكليات وفعلا زالت الخطبة الشكلية وبقيت الكلمة تدل على ذلك الأصل الزائل.

وتعارف العرب على ان خطبة الزواج يلقيها الخطيب وهو جالس خلافاً لجميع الخطب التي تحدثنا عنها حيث يلقيها صاحبها واقفاً، وتعارفوا أيضا على ان يطيل الخاطب ويقصر المجيب وألا يكثر الخاطب في مدح نفسه والثناء عليها، بل يترك ذلك إلى أهل الفتاة لكنه يفخر بخلاله وأمجاد قومه فخرا موجزا، كما يقتصد في كل حديث لا علاقة له بالموضوع، لكنهم سوغوا له ان يسهب قليلا في التعبير عن مشاعره واعجابه بالقوم الذين يريد ان يصهر اليهم، وان يمتدح اهل الفتاة ويطري على سمعة المخطوبة ثم يرد عليه خطيب اهل الفتاة مقتضبا ينوه بالرضا فيتم الامر، او الانتظار فيؤجله، او الاعتذار فيرفضه ويحسمه، وترد في بعض المصادر أمثلة كثيرة لانواع هذه الخطب، بعضها يختص بسواد الناس وعامتهم، ويختص البعض الأخر برؤسائهم وأصحاب امرهم، واختص قسم منها بزواج الملوك، وقد يتقدم للملكة او ابنة الملك أكثر من خطيب فتقام عندئذ حلبة سباق ومبارزة لا يستخدم فيها السيف بل تنوب الخطبة، وهذا يذكرنا بخطبة الفرسان ساعة اللقاء فيكون النصر لأ جودهم كلاما فيفوز بقلب الفتاة. على ان كلامه يجب ان يكون مدعما بنبل المحتد وكرم اليد وشجاعة القلب. هذا وإن أشرف مثل نستشهد به هي خطبة ابي طالب بن عبد المطلب[1] في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم

---

[1] ينظر: ابو طالب : هو عبد مناف بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه و سلم كفل النبي ودافع عنه وصد قريش من الاعتداء على ابن أخيه ولد وتوفي في شعب أبي طالب ايام الحصار سنة ٣ق هـ وقيل اسمه عمران وذا الكفل. (ينظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج١، ص٧٥. ياقوت الحموي، المقتضب من كتاب جمهرة النسب ، ج١ ، ص٢٧. الزركلي، الاعلام ، جـ٢ ، ص٣٤٦ .

عندما خطب خديجة بنت خويلد[1] فهي انضج ما لدينا من خطب الزواج في أخريات عصر ما قبل الإسلام اذ قال[2] (الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم وذرية اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوبا وجعلنا الحكام على الناس، ثم ان محمداً بن عبد الله ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا. وان كان في المال قل، فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها مثل ذلك وما أحبيتهم من الصداق فعليّ)[3] وابقى لنا التاريخ على صيغة كانت قريش ترددها في أثناء خطبة النساء في عصر ما قبل الإسلام فتقول (باسمك اللهم ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف باسمك اللهم ما سألت ولنا ما أعطيت)[4]. ويبدو ان هذا النص كان مقدمة تقليدية للخطبة ثم يأتي المضمون أما عبارة (الحمد لله) التي وردت في خطبة أبي طالب أو (بسم الله) فهما صيغتان إسلاميتان ولا ندري ان كان الرواة المسلمون

---

(1) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد القرى ولدت في مكة و مات ابوها يوم الفجار و تزوجت بأبي هالة بن زراه التميمي فمات عنها و كانت ذا مال كثير و تجارة تبعث بها إلى الشام. تزوجها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكانت أول من اسلم بعد عودته من غار حراء ونزول الوحي إليه بالنبوة وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهل مكة. (ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، م٨، ص ص٧-١١. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م). تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٨٠م). جـ١٤ ، ص٤٤٦.

(2) القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، جـ١، ص٢١٣. الحلبي ، أبو الفرج نور الدين علي بن ابراهيم بن أحمدْ (ت١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) السيرة الحلبية وَهُوَ الكتاب المسمى انسن العيون في سيرة الامين والمأمون، ضبطه وصححه عبد محمد الخليلي، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٠م) جـ١ ص١٣٣

(3) (ينظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ط٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٨م)، م١، ص٧٥

(4) الجاحظ ، البيان و التبيين ،جـ ١ ، ص٤٠٨.

قد أبدلوها في خطبة أبي طالب أما ان الرسول صلى الله عليه وسلم اقترحها على عمه يومئذ. واما سبب قيام أبي طالب خطيبا في زواج الرسول عليه الصلاة وأفضل التسليم مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم هو من هو في العلم والمعرفة والبيان فسببه انهم جرت العادة بينهم إذا أراد عظيم من عظمائهم أو شريف من أشرافهم ان يتزوج قام كبير من أهله أو سيد من عشيرته ليخطب باسمه الفتاة التي اختارها لنفسه شريكة حياته و قد بقي تقليد خطبة الزواج في الأمويين حتى زوال خلافتهم فيروي لنا صاحب العقد الفريد خطبة من أخت عمر بن عبد العزيز وجواب الخليفة على خطبته[1].

أجزاء الخطبة :

تكون الخطبة على خمسة أجزاء أي انها تمر بخمسة مراحل، وقصرها آخرون على ثلاثة: المقدمة والعرض (وتنطوي فيه الادلة والتنفيذ) والخاتمة، ولكن لا يلزم الخطيب ان يلتزم بها فقد يستغني عن المقدمة وقد يكون في حاجة الى تدليل أو تنفيذ، ولكني أعرضها على انها مراحل الخطبة الكاملة ولا خير من ترك بعضها أحيانا وهي :

1- المقدمة :

---

[1] اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب أسحق بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٥م) كتاب البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، ط ١، دار الكتب العلمية، (بيروت ،٢٠٠٢ م) ص١٠٩، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : أبراهيم صالح ، دار صادر ، = صالح، دار صادر، (بيروت ، ١٩٩٧ م)، ص٨٨ ،ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي أحمد (ت١٠٨٩ هـ /٦٧٩م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار اكتب العلمية (بيروت ،د.ت)جـ١ ص ص١١٩-١٢١

أهميتها :

المقدمة من الخطبة كالمطلع من القصيدة، وكالافتتاح في الموسيقى، كل يمهد لما بعده، و يعد السامعين إلى الإصغاء. والمقدمة أول ما يطرق الأسماع من الخطبة، فإن كانت جيدة أصغى السامعون، وتأهبوا لما بعدها، وتفتحت نفوسهم للخطيب، وإلا كانت نذيرا بفشله وتفاهة أثره . وكثيرا ما تتخذ المقدمة وسيلة لأن يسود الصمت بعد هرج حدث أثر الخطبة سابقة، أو من جراء مناقشة في موضوع الخطبة قبل سماع الرأي فيها أو اضطراب لسبب من الأسباب[1].

ضرورتها والاستغناء عنها :

وقد تكون المقدمة ضرورية ولا يستغني عنها الخطيب، كأن يكون مجهولاً لا صلة للسامعين به، فيعتمد على المقدمة لعقد هذه الصلة، او يكون الموضوع الذي يخطب فيه مجهولا للسامعين أو لا يثير اهتمامهم، لأنه لا يمس مصالحهم، فيعتمد على المقدمة لتوضيح أهمية الموضوع، وبيان قيمته حتى يتصل بقلوبهم فيعوا ما يقال عنه، أو يكون الخطيب مُبغَّضا إلى السامعين، لأنه من غير حزبهم، أو لمقالة سوء ذاعت عنه، أو لانه كان قد حكم فظلم فيلجأ إلى المقدمة ليخفف من هذه الكراهية ولو مؤقتا و يتطلب منهم تناسي الحزازة والحكم البريء، أو تكون الفكرة التي يدعو إليها الخطيب بغيضة إليهم، كأن يدعو الى تقييد التعليم في جمع معين من المتعلمين أو الى الاشتراكية في جمع من المالكين أو إلى التحلل من قيود الدين في مجتمع من المتدينين المدنيين، أو إلى الخضوع لأحكام الدين في جمهور من الماجنين، فيقدم خطبته بكلمة ملطفة لهذه الخصومة مخففة لما في نفوسهم من عداء سابق لما يدعو اليه، إذ يدعو الجمع إلى الخضوع للحق و التجرد من التعصب للهوى ولو فترة من الزمن، وفي غير هذه الأحوال لا حاجة إلى مقدمة[2].

---

[1] ينظر: الحوفي، أحمد محمد، (الدكتور)، فن الخطابة ص١٢١.

[2] ينظر: م، ن ، ص ص ١٢١-١٢٢.

شروط جودتها

١) يجب ان تكون الخطبة متصلة بالموضوع نفسه، لتخدمه و تمهد لـه، و مثالنا على ذلك خطبة الخليفة الأول الراشد أبى بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه يوم السقيفة، فقد قدم للموضوع وهو ان المهاجرين أولى بالخلافة من الانصار بهذه المقدمة فقد قال :

(ان الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله وحده وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون انها لهم عندهم شافعة ولهم نافعة وانما هي من حجر منحوت وخشب منجور ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى، فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الاولين من قومه[1] بتصديقه).

٢) ان تكون المقدمة واضحة مناسبة لعقول السامعين موزونة المعاني دقيقة التعبير، لان السامعين في أول الخطبة ابصر بالنقد و أقرب إلى العناد حتى إذا ما بهرهم الخطيب اسلموا له القياد .

٣) ان تكون المقدمة شائعة تجذب السامعين الى الموضوع جديدة غير مبتذلة أو مشاعة، صالحة لكل خطبة. جاء في تعريف ابن المقطع للبلاغة (وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته) وعلق الجاحظ بقوله كأنه يقول (فرق بين صدر خطبة النكاح و بين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير الى مغزاك والى العمود الذي قصدت، والغرض

---

[1] ينظر: صفوت ، أحمد زكي ، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، تصنيف و مراجعة : د. محمد جاسم وأساتذة آخرون ، طبع بيت الحكمة ، ط١٣ ، (بغداد ، ١٩٨٨)، جـ١ ، ص٦٢

الذي اليه نزعت) [1].

٤) ان تناسب الخطبة طولا وقصرا لانها مقدمة لا خطبة وتمهيد لا موضوع، ولأنها ان طالت استنفدت جهد الخطيب وانتباه السامعين فيحرم الموضوع نفسه نشاطه ونشاطهم.

أنواعها :

ليس للمقدمة طراز خاص تلزمه فان الخطيب حرٌّفي أن يستلهم مقدمته كما يشاء وتشاء ظروف المجتمع والموضوع.

ومن انواع المقدمة :

أولاً – حمد لله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله، وكان هذا عرفا شائعاً لازما في العصر الإسلامي، وقد دأب المسلمون عليه حتى صار قاعدة يندر خلافها وقد قال الجاحظ (ان خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي الشوهاء) .

ولم يكن توشيح الخطبة بالقرآن شرطا في الخطبة الدينية يوم الجمعة أو العيد فحسب بل كان كما قال الجاحظ مستحسنا في الخطب كلها لأنه يورث الكلام بها ووقارا ورقة وسلس موقع. حدث عمران بن حطان الخطيب الخارجي[2] فقال: خطبت عند زياد خطبة غلطت اني لم أقصر فيها عن غاية ولم أدع لطاعن علة ثم

---

[1] ينظر: الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ١ ص١١٦

[2] عمران بن حطان : هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني المتوفي سنة ٨٤ هـ و هو خطيب و شاعر وفقيه. ينظر: الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ٣ ، ص٢٦٥. الزركلي ، الاعلام ، جـ ٥ ، ص٢٣٣.

مررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شئ من القرآن. [1]

ثانياً – الاستدلال بحكمة أو مثل أو بيت رائع من الشعر يوحي بالموضوع ويمهد له كما أستهل الحجاج بن يوسف الثقفي خطبته الشهيرة[2] بالكوفة متمثلا بهذا البيت:

انا ابن جَلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثالثاً – وقد يبدأ الخطيب بتنفيذ حجج خصمه، أو بذكر موضوعه على الاجمال .

رابعاً – وكثيرا ما يستوحي الخطيب اللبق مقدمته من حال الحفل وظروف الجمع، فتحدث أثرا في النفوس عميقا.

٣) العرض :

أهميته :

ان استغنى الخطيب أحيانا عن المقدمة أو عن الخاتمة فليس يستطيع ان يستغني عن عرض الموضوع لانه الخطبة نفسها أيا كان نوعها.

شروط جودته :

أ) الوحدة، وذلك ان تتبع مسائله كلها من ينبوع واحد، كانصاف أقطار الدائرة تتشعب كلها من مركز الدائرة وقد سبق بيان ان من أسباب ضعف الخطابة الدينية ان الخطبة الواحدة ذات موضوعات شتى .

ب) الترتيب ، فيعرض الخطيب موضوعه متسلسلا ، يسلم كل جزء إلى ما بعده وبذلك تمهد الأجزاء كلها إلى النتيجة التي يريدها .

جـ) الوضوح، وهو أساس الخطبة الناجحة

---

[1] الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ ١ ، ص٢٢٨

[2] ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ ٢ ، ص٢٠ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ١ ، ص١٧٠

٣) التدليل :

كثيرا ما يحتاج الخطيب الى التدليل على صحة رأيه وهناك نوعان من الادلة :

١) أدلة منطقية:

وهي المبنية على مقدمات ثابتة يقينية كالقياس مثلا فإذا أراد استنباط قياس فليعرض الموضوع والمحمول (وهما الحدان أو الطرفان) على الحد الأوسط فإذا ثبتت المقابلة صح القياس والا فلا، كان يقول كل جماعة لابد لهم من عقيدة فالعراقيون جماعة فلابد لهم من عقيدة وهذا الدليل المنطقي ينشأ عنه اقتناع ويقين عقلي، كما يقنع انسان آخر بان مجموع زوايا المثلث قائمتان .

٢) أدلة خطابية :

وهي المبنية على مقدمات ظنية أو المستندة الى العرف الشائع او الى حكم مشهورة أو الى أقوال الفلاسفة والمشرعين، وينشأ من هذه الادلة الخطابية اقتناع شعوري، والفرق بين النوعين ان الدليل المنطقي لا يتصرف في القياس، أما الدليل الخطابي فانه يتصرف فيه التقديم والتأخير كقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه:

(اني امامكم واسوتكم فسيروا بسيرتي واقتفوا معالمي، فان لكل مأموم إماما يقتدى به ويستفي بنور علمه ألا ان أمامكم قد اكتفى أمن دنياهِ بِطمْريْه[١] ومن طعامه بقرصيه) [٢]

وكان التدليل المنطقي يقتضي ان يقول لكل مأموم أمام يقتدي به فانا امامكم فاقتدوا بي وسيروا بسيرتي، ولكن لا يمكن ان نلغي التدليل المنطقي من الخطابة، والا كانت لونا من الدجل لهذا قلت ان التدليل المنطقي لا جدوى منه في أكثر الخطب، وذلك ان الخطب القضائية في أمور مدنية وخطب المناظرات والجدل

---

[١] ينظر: (الدكتور)، احمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٢٩.

[٢] طمريه بمعنى ثوبيه البالبين والطمر بالكسر الثوب الخلق. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٣٩٧. (الدكتور)، أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة ، ص١٢٩.

والخطب العلمية والاجتماعية يلائمها التدليل العقلي والحجج المنطقية، أما خطب الحرب وبعض الخطب السياسية والدينية والقضائية والحفلية فيناسبها العزف على أوتار العاطفة، ومعنى هذا انه من الخطأ التزام طريقة واحدة في الخطب كلها. وقد عرف تاريخ الخطابة رجالا اعتمدوا على التدليل العقلي الصرف وانتصروا.

٤)التفنيد :

هو مناقشة آراء الخصم وأدلته لإبطالها، سواء أكان التفنيد للآراء العامة التي دعا الخصم إليها أم للنتائج التي استنبطها، وكثير ما يضطر إلى تفنيد ما قاله خصمه ليمحو من النفوس أثره وقد يسبق خصمه، إلى تفنيد آرائه التي يتوقعها ليسد عليه المسلك. وقد يتجاهل الخطيب حجج خصمه فلا ينقضها، لأنه غير مكترث بها، لان خطبته نفسها ستبطلها وتمحو أثرها .

وسائله :

١) **المغالطة**، وهي عند المناطقة صناعة يعرف بها القياس الفاسد، إما من جهة الصورة، وإما من جهة المادة، وإما من جهتهما معا[١]، وأسباب الغلط علَى، كثرتها ترجع إلى أمر واحد وَهُوَ عدم التمييز بين الشيء وأشباهه، وتنقسم إلى ما يتعلق بالالفاظ بأن تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين المراد وغير المراد، وهنا يدخل الاشتراك والتشابه والمجاز، وإلى ما يتعلق بالمعاني وتأليف القياس كعدم مقدماته، أو تكون مغايرة لإحدى المقدمتين كقول علي عليه السلام على معاوية وكان قد نسب اليه أشياء (وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر اليك وتلك شكاة ظاهر عنك عارُها وقلت اني أقاد كما يُقاد الجمل

---

[١] ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص١٢٧.

المخشوش[1] حتى أبايع ولعمر الله لقد أردت ان تذم فمدحت وان تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة ان يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه ولا مرتابا بيقينه وهذه حجتي الى غيرك قصدها ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها، ثم ذكرت من أمري وأمر عثمان فلك ان تجاب من هذه لترحمك منه فأينا كان أعدى له وأهدى الى مقاتله ؟ أمَنْ بذل له نصرته فاستقعده واستكفه؟ أم من استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى أتى قدره عليه؟ كلا والله لقد علم المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا .....)[2]

فهو هنا يعترف لمعاوية جدلا بأنه حسد الخلفاء ولكن لا صلة لمعاوية بهذا حتى يعتذر اليه ويعترف له جدلا بانه يقاد ولكن لا عيب في القيادة ما دام صحيح الدين

وهذا نموذج آخر من خطبة أبي حمزة الشاري[3] لما بلغه ان أهل المدينة

---

[1] الجمل المخشوش الذي في عظم انفه حبل يقاد به. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح ، ص١٣٨

[2] الحوفي ، أحمد محمد ، (الدكتور) ، فن الخطابة ، ص١٢٧

[3] أبو حمزة الشاري : هو المختار بن عوف بن سليمان بن ملك الازدي السليمي البصري من بني سليمة أين ملك ولد في البصرة من الخطباء القادة وكان في كل سنة يخصل بمكة يدعو الناس للخروج على مروان بن محمد و أخذ بمذهب الاباضية وأورد ابن الاثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ١٢٨ ،١٣٠ ان ابا الحمزة قتل في واقعة وادي القرى و لكن أورد المسعودي في مروج الذهب من انه قتل سنة ١٣٠. (ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ ٧ ، ص١٤٦ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص١٤٦ ، ابن كثير ، البداية و النهاية ، جـ٨، ص٣٥، ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف البشعاوي الظاهري (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة ، في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب ، (القاهرة ، ١٩٢٠ م) ، جـ١ ص٣١١، أبي فرح الاصفهاني ، الاغاني ، جـ٢٠ ، ص١٠٥ ، ابن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ، جـ ٢، ص ص١٦١-١٦٢)

يعيبون أصحابه بحداثة أسنانهم وخفة أحلامهم (قلتم هم شباب أحداث واعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكورون في الخير الا شبابا أحداثا ؟ شباب والله متكهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة من الباطل أرجلهم أطلاح سهر، باعوا انفسا تموت غدا بانفس لا تموت أبدا). فهو يعترف بدعوى خصومه ان حزبه من الشباب و يخالفهم في النتيجة إذ يصف هؤلاء الشباب بالحصافة والشجاعة والتقوى.

ب : الانكار :

فلا يسلم للخصم بما ادعاه، معتمدا في انكاره على حجة ملزمة ومن ذلك خطبة معاوية[1] بالمدينة عام الجماعة، إذ تلقاه رجال من قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزّ نصرُك، وأغلى كعبُك، فما ردَّ عليهم شيئا حتى صعد المنبر فحمدا الله وأثنى عليه ثم قال [2]:

(أما بعد فاني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة) فهو يوافقهم على ان الله أعزّ نصره وأعلى كعبه ويخالفهم في طريقة توليه، هم يدعون ان لمحبتهم ضلعا فيها وهو ينكر عليهم ذلك وحجته انهم كانوا من انصار علي عليه السلام ورضي الله عنه وأرضاه و كرم الله وجهه .

---

[1] معاوية بن (أبي سفيان) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموي مؤسس الدولة الاموية في الشام أحد دهاة العرب واسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ و ولاه الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللّهُ عَنهُ الله عنه الاردن ودمشق واستلم الخلافة من الامام الحسن سنة ٤١ هـ وتوفي في دمشق سنة ٦٠ هـ. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص١٩٢، الطبري، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ٦، ص١٨٠. ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، جـ ٤، ص٢.

[2] ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، جـ ١، ص٤٥٨. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص١٠٣ .

الخاتمة :

وهي آخر ما يبقى في آذان السامعين وأذهانهم من الخطبة، وبعدها يجني الخطيب الثمرة المرتجاة من خطبته، فتصدر المحكمة حكمها بالبراءة أو الادانة، ويخشع السامعون لخطبة الوعظ ويتقون، أو لا يتأثرون، ويشارك السامعون الخطيب شعوره نحو المحتفل به، أولا يشاركون. وفي الخاتمة يتجلى نجاح الخطيب في لعبه بعواطف الجمهور واستمالته لهمم.

وللخطيب ان يلخص في خاتمته الأفكار والعناصر البارزة من خطبته، وله ان يستثير السامعين ويهيجهم ويلهب مشاعرهم، وقد يجمع بين الطريقتين. ومن شروط جودة الخاتمة:

أ) فان لخص فليكتفي بذكر أهم ما جاء بخطابه وليعبر بأساليب مغايرة لتعبيراته الأولى لانه إن كرر المعاني بالأساليب نفسها أضجر السامعين، وان هاج المشاعر وجب ان يكون عليما بنفسية الجمع ووسائل استمالته ليسلك الطريق الملائم لأثارته، أيلجأ الى التحذير والترهيب أم الى الوعد والترغيب؟ أيتسلل إلى القلوب بآمال يبثها أم بمخاوف يُهول بها؟

ب) ان تكون قوية العبارة لتهز المشاعر .

جـ) ان تكون قصيرة، لأن قصرها يكسبها روعة، وخير للخطيب ان ينتهي والجمع في حماسة وميل الى الاستزادة من ان ينتهي والناس في ملل وسآمة.

والمثال على ذلك والمحقق للهدف من الخطبة ما قاله زياد ابن أبيه في ختام خطبته بالبصرة:- (وإذا رأيتموني انفذ فيكم الأمر فأنفذه على اذلاله. وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم ان يكون من صرعاي).

المبحث الثالث

خصائص الخطيب (عدته وصفاته)

للخطيب خصائص أي صفات يتسم بها، ولابد من توفرها فيه، وهذه الصفات أو أعني الشروط يجب ان تتوفر في الخطيب و يمكن أجمالها بما يأتي :

١) الاستعداد الطبيعي (الفطري) :

وأول ما يعترضنا هذا السؤال . أيستطيع الانسان ان يصير خطيبا بكثرة المرانة والمزاولة؟ أم لا غنى له عن هبة طبيعية سابقة تنميها المرانة وتزكيها المزاولة؟ فهي كالبذرة الحية تنبت وتزكو إذا بذرت في تربة خصيبة وجو صالح، وجوابنا على ذلك ان الخطيب كالشاعر والموسيقار والرسام لابد ان يكون في فطرته استعداد لهذا الفن البليغ ينبع من نفسه ويمده، ونحن نعلم ان الناس متباينين في ميولهم وفي استعدادهم فمنهم من لا تهزه المناظر الرائعة أو المروعة ومنهم من يصمت أمام هذه المناظر دهشا مذهولا، وفيهم من تجيش بالأحاسيس نفسه فيعبر عن جيشانه بكلمات مصورة لما يحس، والخطيب والشاعر والكاتب من هؤلاء الذين إذا ما ثارت عواطفهم فسحت لهم متنفسا فعبروا وصوروا .

وفي بعض تعاريف البلاغة عند العرب والفرنجة ما يؤيد انها طبع في البلغاء فأبو الحسن الرمّاني يقول أصل البلاغة الطبع، وصُحار بن عياش العبدي يجيب معاوية وقد سأله ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ بقوله : شئ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا

٢) اللسن والفصاحة :

ولابد للخطيب ان يكون لسنا فصيحا ذرب اللسان بليل الريق قديرا عَلَى التعبير، لأن منطقه هو ثروته وعدته، وَهُوَ بمنطقه يقنع وبمنطقه يستميل ، وما هَزَّ المنابر في القديم والحديث ولا تزَعَّم الامم وقاد الجماهير إلا اللُّسن الفصحاء وقد علم العرب بتجاربهم ان سعة الشِّدقين عون عَلَى اللَّسَن فامتدحوها قيل لاعرابي :

ما الجمال ؟ قال "٠٠٠٠٠ ورَحَبَ الشِّدقيْن "[١]

وتكلم الخطباء عند معاوية فأحسنوا ، فقال : والله لأرمينهم بالخطيب الأشـــدق ، قم يا يزيد فخطب وقال

"وضُلْع الرؤوس عظام البطون

رحاب الشدق من طوال القَصَر[٢] "

وذموا ضيق الافواه قال الشاعر:

لحى الله الدّ بى من قبيلة

إذا ذكِرت في النائبات أمورها

فشبه أفواههم بأفواه الجراد.

ومن نقص الخطيب ومعايبه ان يكون بمنطقه عيب يعـوق ســهولة المخــارج وسلامة الحروف واستواءها كالجلجلة[٣] والفأفأة والتمتمة واللثغة واللَّفــف والحُبســة والحُكلة .

وتلك عيوب تبدو منذ الطفولة، راجعة الى وراثة أو مرض أو ســوء محاكــاة أو تعجل في النطق أو خجل، ولكن من المســتطاع علاجهــا وعليــه فــان عيــوب الخطيب تكون على الوجه الاتي وبالتفصيل .

---

[١] ينظر: الدكتور أحمدُ محمد الحوفي، فن الخطابة، ص١١.

[٢] القصر : الاعناق . الدبى ، الجراد. أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص١٩٨ و٥٣٧

[٣] اللجلجة تعني التردد في الكلام ، الفأفأة تعني ترديد الفاء واكثارها في الكلام . والتمتمة تعنــي رد الكلام الى الفاء والميم واللغثة أو اللثغ تحول اللسان من السين الى التاء أو من الــراء الــى العين أو الياء أو من حرف الى حرف واللفف معناه العي و البطء في الكلام وأن يمــلأ لســان المتكلم فمه فلا يبين والحبسة تعني تعذر الكلام عند ارادته والحكلة تعني العجمة فــي الكــلام . المبارك ، عبد الحسين ، (الدكتور) ، فقه اللغة ، مطبعة جامعة البصرة (١٩٨٦م، ص٤٦) . أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٥٩٢. الجنابي، أحمدُ نصيف (الدكتور) ملامــح مــن تاريخ اللغة العربية، دار الرشيد، (بغداد، ١٩٨١م) ص ص٢٧- ٤٥

أ) اللثـــــغ:

أي إبدال حرف حرفاً والشائع منه إبدال الراء ياء أو غينا والغـين أقـل قبحـا وهي كثيرة[١] في كبار السن وبلغائهم وأشراقهم وعلمائهم، ولكنها بالجهـد والمثـابرة تزول، فقد كان محمد بن شبيب المتكلم إذا حمل نفسه وقـوم لسـانه بنطـق الـراء صحيحة وكثير من معاصيرنا زاولوا هذا ونجحوا. وقد كان واصـل بـن عطـاء[٢] ألثغ فاحش اللثغ وكانت خطبته خالية من الراء[٣] وهو شيخ من شيوخ المعتزلـة ذو رأي يدعو اليه ويذيعه ويلاحي عنه ويقارع الأبطال بالخطب الطوال، فـلا بـد لـه من بيان سليم وسهولة مخرج وجهارة منطق وتكميل حـروف واقامـة وزن فعمـد الى الراء فأسقطها من كلامه وأبعدها من منطقه ولم يزل يكابد ذلك ويغالبـه حتـى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل (ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هـذا الحـال

---

(١) الجاحظ ، البيان و التبين ، جـ١ ، ص ٢٨

(٢) واصل بن عطاء المعتزلي، الغزال مولى بني ضبة كان أحد ألائمة البلغاء و كان يلثـغ بـالراء فيجعلها عينا وهو تلميذ الامام الحسن البصري وله كتاب المنزلة بين المنزلتين سـمي بـالغزال لانه كان يلازم الغزالين ليعرف التعففات من النساء فيجعل صدقته لهن. ينظـر: ابـن سـعد ، الطبقات الكبرى ، م٨ ، ص ص٧-١١. ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمـد ، (ت٦٨١، ١٢٨٣م)، وفيـات الاعيـان وانبـاء ابنـاء الزمـان، = =تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مكتبـة النهضـة المصـرية ، (القـاهرة ، ١٩٤٨م) جـ٦، ص١١، الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ / ١١٥٥م)، الملل والنحل ، صححه وعلق عليه : الشيخ أحمد فهمي محمد ، ط١ ، (الجيزة ، ١٩٤٨ م) ، جـ ١ ، ص ص ٤٦ -٥٠ . واصل بن عطاء المعتزلي، الغزال مولى بني ضبة كـان أحـد ألائمة البلغاء و كان يلثغ بالراء فيجعلها عينا وهو تلميذ الامام الحسن البصـري ولـه كتـاب المنزلة بين المنزلتين سمي بالغزال لانه كان يلازم الغزالين ليعرف التعففات من النساء فيجعـل صدقته لهن .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ٦، ص١٦٦. الجنابي ، أحمد نصـيف، (الـدكتور) ، ملامح من تاريخ اللغة العربية، دار الرشيد للنشر ، (بغداد، ١٩٨١م) ، ص ص ٢٧-٤٩

حتى صار لغرابته مثلا ولظرافته معلما لما استجزنا الاقرار به والتأكيد لـه ولسـت أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة[1] لان ذلك يحتمل الصـنعة وانمـا مماجّـة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الأخوان، ومن أمثلة مجافاته للـراء قولـه فـي بشار بن برد[2] وقد هجاه وصوب رأي ابليس في تقديم النار على الطين " أمـا لهـذا الأعمى الملحد المشنّف المكنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا ان الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إلى من يبْعج بطنه علَى مضجعه ويقتلـه فـي جـوف منزلـه، أو في حفلة " فلم ينطق بكلمة بشار أوْ ابـن بـرد أو المرَعّـث أو الكـافر وأختـار عوضاً منها كلمات لاراء فيها وقال الغالية ولم يذكر المنصورية أو المغيريـة وقـال بعثت بدلاً من أرسلت وقال علَى مضجعه بدلا من علَـى فراشـه وكـان إذا أراد ان يذكر البُر قال القمح (وهي شامية) والحنطة (وهي كوفيـة) وهـو يعلـم ان البـر افصح ،

وقد كان بشار من قبل ان يدين بالرجعة ويكفر الأمة- كثير المديح اواصل بـن عطاء وقد فضله على خالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة والفضل بن عيسى يـوم خطبوا عند عبد الله [3] بن عمر بن عبد العزيز والي العراق لان خطبته التـي نـزع منها الراء كانت أطول من خطبهم فقال بشار :

تكلفـــوا القول والأقدام قد حفلوا

---

(1) الجاحظ البيان والتبيين ، جـ١،ص٢٨ ،

(2) بشار بن برد : هو بشار بن برد العقيلي بالولاء أبو معاذ من أشعر المولـودين أصـله مـن طخارستان أي فارسي الأصل زكان ضريرا نشأ في البصرة أتهم بالزندقة فمات ضربا بالسياط سنة ١٦٧هـ وقيل سنة ١٦٠هـ /٧٨٤م ودفن بالبصرة، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٨٨ . الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ، ص٤٩

(3) عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وهو من الخطباء الشعراء الـذين جمعـوا الخطـب والشـعر والرسائل الطوال وله كتاب الأخوان والمسائل وغيرها توفي سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م. ينظـر: الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ١، ص٣٠ و٥٠. الزركلي، الاعلام، جـ٣، ص٢١٠.

وحبّرا خطباً ناهيك من خطب

فقـــام مرتجـــــلا تغـــلي بداهتـــه

كمِرْجَلِ القيـــن لمّا حـــفَّ باللهـــب

و

جـــانب الـــــراء لـــم يشعر بـــــه

قبل التصفح والإغراق في الطلـــــــب[1]

وبلغ بالعرب احتواؤهم للثغ ان طلّق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء مخافة ان تجيئه بولد ألثغ فقال :

لثغاء تأتي بحيْقسِ ألثغ

تميسُ في الموشيّ والمصبّغ [2]

وكانوا يعرفون ان سقط الثنايا يجلب اللثغ ولذلك قال سهل بـــن هـــارون[3]: لـــو عرف الزنجني فرط حاجته إلى ثناياه في اقامة الحروف وتكميل جميل البيـــان لمـــا فزع ثناياه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سهيل بن عمـــرو[4] الخطيـــب ــ وكان قبل إسلامه من أخطب الناس وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه والـــه وسلم ــ يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلّع لسانه فلا يقـــوم عليـــك خطيبـــا أبدا وانما قال ذلك لان سهيلا كان أعلم من شفته السفلى. ولما شد عبد الملـــك بـــن

---

[1] ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـــ١، ص٣٥، الدكتور أحمد نصيف الجنابي، ملامـــح مـــن تاريخ اللغة العربية، ص ص٢٧- ٣٩

[2] المصبّغ يعني الغليظ الضخم لاخير عنده والذي يغضب ويرضى من غير شـــيء ،ابـــو بكـــر الرازي ، مختار الصحاح ص٣٥٥ .

[3] سهل بن هارون بن راهون أبو عمرو الدستميساني كاتب بليغ حكيم رئيس خزانة الحكمة فـــي زمن المأمون. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ، جـــ١، ص٣٤٦.

[4] الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧ هـــ /) ، المغازي ، (القاهرة ، ١٩٤٨م)، ص١٠١

مروان أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت.

ب) الحصر والرتج : وذلك قد يعتري الحصر الخطيب فيبرد جسمه وتخور قوته ويتصبب عرقه ويدور رأسه وتطن أذنه ويشحب لونه وتسرع ضربات قلبه، وربما يعتريه الحصر حين يعتلي المنبر وربما يصيبه وهو يخطب لحادث يعرض من السامعين أو لوهم يتوهمه قال أبو هلال العسكري [1] " الحيرة والدهش يورثان الحُبْسة والحصر وهما سبب الارتياح والاجبال.

حدثوا ان عبد ربه اليشكري كان عاملا على المدائن [2] فصعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة، فحمد الله ثم أرتج عليه فسكت ثم قال: والله اني لأكون في بيتي فتجئ على لساني ألف كلمة فإذا قمت على أعوادكم هذه ـ يريد المنبر ـ جاء الشيطان فمحاها من صدري وقد كنت أحب يوم الجمعة فصرت أبغضه وما ذلك إلا لخطبتكم هذه. وقد يحصر الخطيب مرة فيهجر من بعدها المنابر ويخجل من لقاء الجماهير ولذلك تعوذ وأمنه قال النمر بن نؤلب[3]

أعذني ربَّ من حصر وعيّ

ومن نفس أعالجها علاجاً

فعلى من يتصدى لمواقف الخطابة ان يكون رابط الجأش قوي القلب، جريئاً على مواجهة الجماهير، وتحمل ما قد يحدث لا يعيا ولا يحصر وليثق بنجاحه سلفا

---

[1] أبو هلال العسكري : هو الحسن بن عبد عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال عالم بالأدب نسبته الى عسكر مكرم من كور الاهوار له مصنفات منها كتاب الصناعتين ، التلخيص ، جمهرة الامثال توفي بعد سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥ م . الزركلي، الاعلام ، جـ ٢ ، ص٢١١-٢١٢ . البغدادي ، خزانة الأدب ، جـ ١ ، ص١١٢ . ياقوت الحموي، معجم البلدان ، جـ ٦ ، ص ١٧٧.

[2] مدينة أول من بناها انوشروان بن قباذ فهي ساكن ملوك الأكاسرة و التي تسمى حاليا سلمان باك . ينظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان ،جـ٥ ، ص٨٨ ، اليعقوبي ، البلدان ،ص١٥

[3] الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١، ص٢٦ .

ويتسلح بثقته بنفسه وفي تقدير الجمهور له.

والخطيب الماهر من يجيد التخلص من الحصر ان وقع لـه بكلمـة عاجلـة أو جملة مؤثرة، فقد أرتج على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه فـي أول خطبة له فقال (أيها الناس إن أول مركب صعب. وان أعش تـأتكم الخطـب علـى وجهها وسيجعل الله بعد العسر يسرا) ولما قدم يزيد بن أبي سفيان[1] الشـام واليـا عليها لأبي بكر خطب الناس فأرتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فعـاد ثـم أرتج عليه فقال " يا أهل الشام لعل الله ان يجعل بعد العسر يسرا وبعد عمـي بيانـا وانتم الى أمام فاعل أحوج منكم الى أمام قائل .

وخطب عبد الله بن عامر[2] بالبصرة في يوم أضحى فأرتج عليـه فقـال: والله لا أجمع عليكم عيًا ولُؤَما من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها علـيّ[3]. وبعـض

---

(1) يزيد بن صخر (أبو سفيان) بن حرب الأموي أبو خالد أمير صحابي من رجالات بني أميـة شجاعة و حزما أسلم يوم فتح مكة و أستعمله النبي محمد صلى الله عليه و سلم على صـدقات بني فراس و كانوا أخواله ثم أستعمله أبو بكر الصديق رضي الله عنه على جيش وسيره الـى الشام ثم أستمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه واليا على فلسطين وثم ولي دمشق توفي فـي دمشق بالطاعون وهو على الولاية. (ينظر : الزركلي، الاعلام ، جـ ٩ ، ص٢٣٦ ، ابـن الاثير ، الكامل في التاريخ، جـ ٣ ، ص١٩٧)

(2) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي أبو عبد الرحمن المتوفي سنة ٥٩هـ/٦٧٩م، أمير ، فاتح ولد بمكة وولي البصرة في أيام الخـليفة عُثمان بن عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ الله عنه سـنة ٢٩هـ وفتح سجستان وأبو شهر وطوس ونيسابور وشهد واقعة الجمل ولاه معاوية البصـرة ومات بمكة ودفن بعرفات وقال عنه الأمام علي عليه السلام ابن عامر سـيد فتيـان قـريش. (ينظر : ابن سعد، الطبقات الكبرى ، جـ ٥ ، ص ص٣٠-٣٥، الزركلي ، خير الدين، جـ٤ ، ص٢٣٨ ، الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، (ت ٧٤٨هـ /)، ص٢٦٦، تـاريخ الاسلام ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دائرة المعارف والنشر ، (الكويت ، ١٩٦٠م) جـ٢ ص٢٦٦.

(3) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ،جـ١٣، ص٤٧. أحمد زكي صـفوت ، جمهـرة خطـب العرب ، جـ٣، ص٣٦٩

الخطباء عجزوا عن التخلص اللطيف فأضحكوا. ومن ذلك ما روى الجاحظ انه قيل لرجل من الوجوه قم فاصعد المنبر وتكلم فلما صعد حصر وقال "الحمد لله الذي يرزق هؤلاء" وبقي ساكتاً فأنزلوه وصعد آخر فلما استوى قائما، وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال : اللهم "العن هذه الصلعة "

ودعي مصعب بن حيّان ليخطب في نكاح فحصر فقال:[1] (لقنوا موتاكم شهادة ان لا اله إلا الله) فقالت أم الجارية : عجل الله موتك، الهذا دعوناك.

جـ) الاستعانة :

قال رجل للعتّابي: ما البلاغة : فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ قال : قد عرفت الإعادة والحبسة فما الاستعانة ؟ قال ان يقول عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا ويا هيه واسمع مني وأستمع ألي، وأفهم عني، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِيٌّ وفساد ومن الاستعانة ان يمسح عُثْنُونه أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته من غير موجب أو يتساعل من غير سعلة أو ينبهر في كلامه قال الشاعر :

مليء ببُهرٍ والتفاث وسَعْلةٍ
ومسْحةِ عُثنون وفل الأصابع
أعوذ بالله من الإهمال
ومن كلال الضَّرْب في المقال
ومن خطيب دائم السعال [2].

---

[1] أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ،جـ٣،ص٣٧١- ٣٧٥

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٢٧، البُهر يعني تابع النفس والعثنون يعني اللحية. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٦٧

٣) سعة الثقافة :

قيل لعبد الملك بن مروان[١]: عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين قال : وكيف لا يعجل عليَّ الشيب وانا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين أو قال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن[٢].

حقاً ان الخطيب يعرض على الناس عقله ويعرض عليه ما عنده من تجربة، او فكرة او عقيدة الحياة، كله مجاله، وميدانه فهو في السياسة محتاج الى التاريخ والدين والاقتصاد والاجتماع والقانون، وفي الدين مفتقر الى التعمق في مسائله والى التاريخ ودراسة أحوال المجتمع ونظمه وعاداته، وفي القضاء يستمد من الشرائع والقوانين وعلم النفس الفردي والجمعي والإجرائي، وهو في الخطب كلها يغترف من اللغة والأدب، وكلما استبحرت ثقافته واستفاضت قراءته غرزت معانيه وسمت أفكاره وقويت أدلته .

و إذا كان خطباء العرب[٣] قبل الاسلام قد جروا على الفطرة فانهم كانوا متفوقين على معاصريهم، ولم تكن دواعي الخطابة وانواعها وظروفها قد تشعبت وتعددت وتعقدت، وكان الجمهور كله ساذج المعارف، وأما الآن فالخطيب أيا كان موضوعه لا يقنع ولا يستميل إلا إذا كان دارساً لموضوعه، ومثقفاً ثقافة عامة تضفي على قوله جدة، وعليه فليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره فانها لا تخيم عن النظر في كل العلوم والفنون، ولا شئ الا ويتطال اليه جيدُ كلامها، ويخضع لسلطان لسانها، ومن ثم يجب على الخطيب ان يكون ملما

---

[١] ينظر: عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القريشي أبو الوليد من أعاظم الخلفاء نشأ في المدينة انتقلت اليه الخلافة سنة ٦٥هـ وهو أول من ضرب الدنانير في الإسلام وعرب الدواوين توفي في دمشق سنة (٨٦ هـ / ٧٠٥ م). (ينظر : الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، جـ ٤ ، ص٥٦، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٩٨ ،)

[٢] أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، جـ ٣ ، ص٢٧٦

[٣] الدكتور أحمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص١٨

بمعارف شتى، ولا يستغني الخطيب عن الاطلاع الدائم والا تخلف وأكدى وفتر تأثيره فالروح نار إذا انت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخبت، والانسان بالتعلم ومجالسة العلماء وبطول التقليب لكتب يجود لفظه ويحسن أدبه وهو كما يقول الجاحظ (لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلم وفي البيان الى أكثر من ترك التخير) ويقول في موضع أخر[1] (وانا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبين وان ظننت ان لك فيها طبيعة وانهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك فيستولي الاهمال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة)، ويحذر من مخالطة غير المثقفين ومن ترك الاطلاع بقوله (ولو جالست الجهال والسخفاء والحمقى شهرا فقط لم تفق من أوطار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لان الفساد أسرع الى الناس وأشد التحاما بالطبائع. على ان الخطب تختلف انواعها وموضوعاتها في مقدار حاجتها الى ثقافة الخطيب، وفي نوع هذه الثقافة أكثر مما تتطلب الخطب الحربية والحفلية، والالوان الثقافية التي تقتضيها الخطبة القضائية، كذلك يختلف القدر المطلوب من الثقافة بحسب السامعين، فلكل جمهور نوع من الثقافة يناسبه، والخطيب في كل الحالات محتاج الى ان يكون مزودا بقسط من الثقافة يستطيع ان ينير الطريق أمام سامعيه ويشعرهم بانه أضاف الى معارفهم جديدا، ولقد يعتمد على ثقافته في اضفاء الجدة والطرافة على الموضوعات المعتادة في خطب التكريم والتأبين فيستوعب الانتباه و ينال الاعجاب، وفي عصور الثقافة لابد للخطيب ان يضيف عنصر المعرفة الى العناصر الأخرى التي تقوم عليها شخصيته، وعليه فعلى الخطيب ان يلم بنظم الحكم وأصول الأخلاق وانواع الأدلة وموارد الدولة ومصارفها وطرق تنمية الثروة .

---

[1] الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ ١ ، ص٥٦

٤) معرفة نفسية السامعين :

ان هدف الخطيب ان يتغلل في نفوس سامعيه، فيصرفها كما يشاء، معتمدا على اثارة عواطفهم واشعال مشاعرهم، وسبيله الى ذلك ان يلم بعلم النفس الاجتماعي ليعرف روح المجتمع وعقليته، ويقف على طبائع النفوس وعواطفهم، ويعلم ما يثير هذا المجتمع أو يهدئه، وما يرضيه أو يغضبه وأي الأساليب ملائم له؟ أهو أسلوب البسط والإطناب؟ أم أسلوب الإيجاز والإشارة والاقتضاب؟ والخطيب الناجح من امتزجت بروح السامعين روحه فكان هو وهم كسلكين كهربين سالب وموجب يلتقيان فيشع منهما ضوء وحرارة والسامعون من طبقات. شتى وبيئات عدة فيهم الكبير والصغير والمتعلم والأمي والفقير والغني، والخصم والوالي، فعليه ان يمهد الطريق إلى إقناع هذا الجمهور المتباين والى التأثير فيه، فالعواطف تختلف حسب الموضوعات من سكينة وهياج، وطمأنينة وخوف، وكره وحب، ورضا وسخط وتختلف فيما يثيرها فعواطف الفقير يثيرها ما لا يثيرها عواطف الغني، وعواطف الشاب يهيجها غير ما يهيج عواطف الشيخ ثم هي تختلف تبعا لمزاج السامعين و ميولهم فبعضهم مثلا حساس فيما يتصل بالوطنية وبعضهم فيما يتصل بالدين أو الفضيلة وهكذا . فمثلا للخطابة أدلة و وجدانية تثير الرغبة والإحساس وهذه صالحة للتأثير في العامة في الوعظ والإرشاد وإشعال ثورة أو إخمادها وكنموذج لذلك خطبة الإمام علي بن أبي طالب وقد أغار الضحاك بن قيس[1] على الحيرة من قبل معاوية وغنم من أموال أهلها فاستصرخ عليٌّ الناس

---

[1] ينظر: هو الضحاك بن قيس خالد النهري القريشي ، أبو أمية سيد بني قهر واحد الولاة الشجعان سكن دمشق و شهد صفين مع معاوية ولاه علَى الكوفة سنة ٥٣هـ ثم ولاه دمشق قتل في مرج راهط في المحرم سنة ٦٥ هـ / ٧٤٦ م وقيل في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ . (ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م ٧ ، ص٢٨٧، ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١ هـ / ١١٧٦ م) ، تهذيب ابن عساكر ، تحقيق : عبد القادر بدران ، مطبعة روضة الشام ، (دمشق ، ١٣٠٣هـ) ، جـ ٧ ، ص٤)،الزركلي ،الاعلام ،جـ٣،ص ٣٠٩.

فتقاعدوا، فقام فيهم خطيبا فوبخهم وقرعهم بأدلة خطابية ثم أستحثهم على الجهاد لحماية أعراضهم ودينهم، ثم اقسم لهم أنه لن يصدقهم ولن يرجو نصرتهم ثم عجب ان يكونوا رجالا كرجال معاوية ولكنهم لا يعملون عمل الرجال قال (أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهي الصمَّ الصلاب وفعلكم يُطمع فيكم الاعداء تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم حِيدي حَياد ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم .

أيَّ دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه فأزيكم فقد فاز والله بالسهم الأخْيب، ومن رقي بكم فقد رمى بأفوق ناصل، ناضل، أصبحت والله لا أصدق قولكم و لا أطمع في نصركم ولا أوعد العدو بكم ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طِبكم: القوم رجال أمثالكم.....)[1] .

وللخطابة أدلة عقلية إذا كان المخاطبون علماء أو ساسة أو قضاة، وكثيرا ما يجمع الخطيب بين الادلة الوجدانية والعقلية، ثم لابد للخطيب من دراية بنفسية السامعين ليشوقهم دائما حتى لا يملوا، فان أحس من نظراتهم فترة، أو من حركاتهم مللا شوقهم بفكاهة مناسبة أو قصة طريفة ملائمة أو عبارات ملهبة، فانهم ان ملوا انصرفوا عنه و صار يخطب لنفسه و لذا قال عبد الله بن مسعود[2] (حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم و لحظوك بابصارهم فإذا رأيت منهم فترة فامسك).

---

(1) ينظر:احمد صفوت ، جمهرة خطب العرب ، جـ١ ، ص١٣٨. ومعنى حيدي الحياد : كلمة يقولها الهارب الفار أي أبعدى و تنحي عني أيتها الحرب. السهم ألاخيب بمنى الذي لا يصيب و أفوق ناصل بمنى سهم ناقص خارج. (ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص١٢٦)

(2) عبد الله بن مسعود : هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلي أبو عبد الرحمن صحابي من أكابر الصحابة فضلا وعقلا و قربا من رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو من أهل مكة و كان خادم رسول الله الامين و صاحب سره و رفيقه في حله وترحاله توفي في المدينة عن نحو ستين عاما له في الصحيحين ٨٤٨ حديثا و أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خطبة له. (ينظر : الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج٢ ، ص ٥٦ ، أبو نعيم الاصبهاني، حلية الالياء ، جـ ١ ، ص١٢٤).

والامثلة على هذا كثيرة نورد بعضها : فقد قام عدي بن حاتم الطائي[1] يخطب في الناس ليستفزهم الى نصرة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يعلم ان الامل في ثواب الآخرة لا يكفي وحده في بعث عزائمهم وترغيبهم في الإقدام على الحرب فحبب اليهم القتال بباعث آخر فضلا عن ثواب الآخرة هو المغانم، فقال فيهم :

" قد كنتم في الجاهلية تقاتلون على الدنيا فقاتلوا في الإسلام على الآخرة فان أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة وانا أدعوكم الى الدنيا والآخرة وقد ضمنت عنكم الوفاء وقد أظلكم عليٌّ والناس معه من المهاجرين والبدريين والانصار فكونوا أكثرهم عددا، فان هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور وللقتيل فيه الحياة والرزق) يشير بهذا الى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)[2] .

٥) سرعة البديهية :

كثيرا ما يتعرض الخطيب لسؤال أو مقاطعة أو اعتراض، وقد يستوحي الخطيب من ظروف الحالة وأحداثها، وقد يحس من سامعيه نبوة أو ملالة فيغير مجرى حديثه ليسمعهم نغمات شائقة ولهذا ينبغي ان يكون حاضر الذهن سريع البديهة لا يتحبس في جواب ولا يتلعثم في دفع اعتراض.

---

[1] عدي بن حاتم الطائي : هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد الحشرج الطائي أبو وهب وأبو طريف الأمير، صحابي كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل روى عنه المحدثون ٦٦ حديث . توفي سنة ٦٨هـ /٦٨٧ م (ينظر : الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١١٥، ، ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) الكامل في التاريخ، ط٣، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٩٦٧م) جـ٣، ص٤٩٥. السهيلي ، الروض الانف ، جـ ٢ ، ص٣٤٣ ،البغدادي، خزانة الادب، جـ١، ص١٣٩.

[2] سورة آل عمران اية رقم (١٦٩) .

ولقد يكون سداد الخطيب في الرد على مقاطع أو معارض أقوى تأثيرا في نفوس السامعين من الخطبة كلها، على انه ان لم تسعفه بديهته بجملة قوية مؤثرة مسكنه فالخير له ألا يرد، لان سكوته حينذ خير من كلامه . وإذا كان الباعث على المقاطعة والمعارضة انما هو التهريج والتعويق والتشفي كان السكوت ترفعا وقلة مبالاة . ونضرب مثلا على ذلك فقد خطب أبو جعفر المنصور فحمد الله وأثنى عليه فقال أحد السامعين (أذكِّرك من ذكَّرتَ به) فأجاب أبو جعفر المنصور بلا تفكير ولا روية (سمعا سمعاً لمن حفظ عن الله و ذكّر به وأعوذ بالله ان أكون جبارا عنيدا وان تأخذني العزة بالإثم لقد ضللتُ إذاً وما من المهتدين وانت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله ولكن ليقال قام فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت وانا انذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفينا انبثّت) ثم عاد إلى الخطبة. ومن الأمثلة على ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين صعد المنبر ليخطب فسقطت ذبابة على وجهه فطردها فعادت إليه فلما تكرر منها ذلك ضاقت نفسه و أضطرب تفكيره فتخلص بآية من القران الكريم ملائمة للحالة التي يعانيها فقال : أعوذ بالله السميع العليم (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)[1] ثم نزل ، فاستحسنوا منه هذا التخلص .

من الأمثلة على مواتاة البديهة في المواقف الحرجة ما قاله قتيبة بن مسلم[2]

---

[1] سورة الحج اية رقم (٧٣).

[2] قتيبة بن مُسلم الباهلي: هو قتيبة بن مُسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي أبو حفص امير ولد سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م ولي الري في ايام عبد الملك بن مروان قتل بفرغانة سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م. ينظر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ، ص٢٠٠، اليعقوبي، البلدان، ص١٠٨. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٩، ص٣١١. القلقشندي، أحمدُ بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٩م) صبح الاعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الفكر، (بيروت، ١٩٨٧م).

الباهلي إذ كان يخطب في خراسان[1] وهو يتقدم في فتوحه فسقط القضيب من يديه فتشاؤم أصدقاؤه وتفاءل أعداؤه وشعر قتيبة بذلك فتناول القضيب من الأرض وقال ليس الأمر على ما ظن العدو وخاف الصديق ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافر

ولقد يخطئ الخطيب في حادث يرويه أو خبر يقصه فينبري له بعض سامعيه بتصحيح ما أخطأ فيه، فيتخلص من ورطته بسرعة خاطرة تخلصاً ليقاً لا يسبب له حصرا، ولا يزعزع الثقة فيه، وكذلك من أمثلة هذا ما حدث لوكيع بن أبي الاسود التميمي أحد الأبطال المسلمين في فتوح بخارى[2] مع قتيبة بن مسلم فقد كان يخطب مرة في جند العرب بخراسان فقال: (ان الله خلق السموات والارض في ستة أشهر)) فرد عليه أحد السامعين بقوله انها ستة أيام فقال وكيع: ((وأبيك لقد قلتها واني لاستقلها). وكذلك فعل عدي بن زياد الايادي فانه قال في خطبة له : (أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : (ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد)[3] فقال له أحد الحاضرين : ليس هذا من قول العبد الصالح وانما هو قول فرعون فقال عدي : من قاله فقد أحسن.

---

[1] خراسان، بلاد واسعة اول حدودها فما يلي العراق وقيل خُرْ اسم للشمس بالفارسية واسان كأنه اصل الشيء ومكانه وقد فتحت من قبل المسلمين. ينظر: ، اليعقوبي، البلدان، ص٨٩، ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص٤٠١.

[2] بخارى وردت بالالف الممدودة (بخارا) وهي من اعظم مدن ما وراء النهر وهي كثيرة البساتين واسعة الفواكه، قاعدة ملك السامانية. ينظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص١٢٣، ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص٤١٩.

[3] قال فرعون (ما اريكم إلاَّ ما أرى وما أهديكم إلاَّ سبيل الرشاد) سورة غافر اية رقم (٢٩).

٦) حرارة العاطفة :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا لا يُعْجِبنَّكَ من الخطيب قوله حتى يكون مع اللسان أصيلا، فالخطيب المتأثر المعتقد صدق ما يدعو اليه تلتهب كلماته وتستقر في القلوب عباراته، لانها قبس من نفسه المشتعلة وصورة من عواطفه المنفعلة، وسرعان ما يتصل أرواح السامعين بروحه تستمد منها وتتحد معها وتتجاوب وتندفع الى الطريق التي يشقها الخطيب و يريدها، فهو لا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفها وقلوبهم قد وعتها .

محقق إخفاقُ الخطيب إن تكلم بدون حماسة تتضح في ألفاظه ومعانيه و تتجلى في وقفته وإشاراته لانه بذلك لا يستميل ولا يستثير ولا يسيطر على الجمهور. وقال الحسن البصري لواعظ لم تؤثر به موعظته (يا هذا ان بقلبك لشرا أو بقلبي).

٧) روعة المنظر وجودة الإلقاء :

لابد ان يكون الخطيب رائع المنظر، جيد الإلقاء، لان شخصيته، ووقفته، واشاراته، وجهارة صوته وحلاوته، وحسن هندامه، وبزته، وحسن خلقه، كل هذه أعوان على التأثير والاستمالة، ونحن نقرأ خطبا كان لها دوي حين سمعت فلا نحس بها روعة لانها استمدت تأثيرها من الاسباب التي صاحبت القاءها. ولقد يعين على روعة المنظر واجادة الالقاء عدة عوامل هي:

أ) الوقفة :

اذ يقف الخطيب أمام الجمهور ليشرف عليهم، وليتطلعوا اليه، ويستطيع ان يقف وقفة تضفي عليه فخامة وعظمة، مع اجتناب بعض العادات المستهجنة كوضع اليد في الخاصرة أو كثرة الحركة، وذلك بان يعتدل في وقفته ويبرز الى الامام صدره ويقدم رجلا على الأخرى ليتزن جسمه، ويستريح نفسه، ولا يعيا

صوته. وعلى الخطيب إذا ما صعد المنبر ان يتريث قليلا ليتعرف على الجمهور وان كان قد سبقه خطيب آخر فان هذا التريث ضروري حتى يهدأ المكان ويزول صدى الخطيب السابق من الاذان، فينتبه السامعون الى الخطيب الجديد. و قد أعتاد الخطباء في الامم ان يخطبوا وقوفا، والخطيب العربي كان يقف على شرف من الارض أو على ظهر دابة وكان يفخم منظره بلبس عمامة، والاعتماد على عصا أو مخصرة . أو يعتمد على قوس أو رمح، ولم يخطبوا قعودا الا في الزواج[1] لان هذا النوع من الخطابة أقرب الى الحديث والحوار، وليست به عاطفة جياشة يستدعي اظهارها ان يعتلي المتكلم نضدا. ولكن العالم اليوم على اتخاذ المنابر أو المناضد العالية، فيقف الخطيب على مرتفع وأمامه نضد، والخطباء الحديثو العهد بالخطابة يؤثرون ذلك لانهم يتوهمون ان النضد يفصلهم من الجمهور الذي يتهيبونه ولكن الخطباء المدربين يتبرمون بهذه الوقفة لانها تغل حركاتهم وتحبسهم في مكان ضيق .

ب) حسن الاشارة :

الاشارة لغة منظورة أو لغة متحركة. فإذا اقترنت الاشارة باللغة في موضعها الملائم أثرت تأثيرا عظيما، وصوت الخطيب مهما تتغير نبراته ونغماته لا يكفي للتعبير عن العواطف كلها فلابد من ان تساعده حركات اليد والرأس والمنكبين، وملامح الوجه، ونظرات العينين واشارات الحاجب. فالعين هي النافذة التي تطل منها على العالم، ويطل منها علينا تشف نظراتها عن العواطف وتكشف عما بدخلة النفس

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره

وتعرف بالنجوى الحديثَ المغمّسا[2]

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص١١١.

[2] اليمين المغمسة: الكاذبة التي تغمس صاحبها في الاثم والمراد هنا الحديث الكاذب. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٤٨١.

فمثلا العين المفتوحة تمثل الغيظ أو الخوف أو الإعجاب، والعين المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء، والنظر الشَّزْر يترجم عن الاحتقار والاستهانة والكراهية، والعين المتحركة يمينا وشمالا تنبئ عن الرياء والاشمئزاز، والعين المتطلعة إلى السماء ترمز إلى الدعاء، والنظرة إلى الارض تعبر عن اليأس او الخشوعْ أو الحياء، والعين المستقرة في نظرتها تفصح عن الشدة والإثبات والرجاء، والعين اللامعة ترجمان عن الظفر، والوجه كله معبر عن الانفعالات بما يرتسم على صفحته من خطوط وأشكال، فارتفاع خطوط الجبهة قليلا يمثل الانتباه، وارتفاعها كثيرا يرسم الدهشة أو الفرح العظيم، أو الألم الأليم، وانخفاضها يدل على القلق والتفكير، والوقفة المعتدلة الناهضة تدل على التحدي، والوقفة المنحنية تدل على الحنان والشفقة والاستسلام، وانطلاق الذراع إلى الأمام ينبئ عن التقدم وعن التهديد، وهكذا وقد يتهدد رافع الصوت والسيف بإشارة من سيفه أو سوطه فيكون ذلك رادعاً وزاجراً ووعيداً وتحذيراً وقد يجد الخطيب من اللائق ألا يصرح بلفظ فيشير إشارة تؤدي معناه فتكون أبدع دلالة وأليق بالمقام، والإشارة تساعد الخطيب على التنفس وإعلاء الصوت، والخطيب الذي يقف جامدا لا يشير يشبه مذياعا يتكلم .

ذكر الجاحظ ان أبا شِمْر كان إذا ناقش لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه، حتى كان كلامه كأنما يخرج من صَدْع صخرة وكان يعيب صاحب الاشارة بافتقاره إليها، وعجزه عن بلوغ غايته، ويقول ليس من المنطق ان تستعين عليه بغيره ولكنه اضطر في مجادلة بينه وبين ابراهيم بن يسار النظام[1]

---

[1] ابراهيم بن يسار بن هانئ النظام سمي بالنظام لأنه كان نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون وقيل كان ينظم الخرز في سوق البصرة. وهو شيخ المعتزلة توفي سنة ٢٣١هـ. (ينظر: البغدادي ،تاريخ ،تاريخ بغداد ،جـ٦،ص ٩٧،الشريف المرتضى،جـ١،ص ١٣٤،الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٥م)، الملل والنحل، صححه وعلق عليه: الشيخ احمد فهمي محمد، ط١، (الجيزة، ١٩٤٨م) جـ١، ص ص ٥٤-٥٥. الشريف المرتضى امالي المرتضى، جـ١، ص١٣٢، البغدادي، تاريخ بغداد، جـ٦، ص٩٧.

إلى تحريك يديه، والخروج عن تزمته وتوقره، وكان الذي غره ان اصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلمون له، ويميلون اليه، ويقبلون كل ما يورده عليهم، ويثبته عندهم فلما طال عليه توقيرهم له وترك مجاذبتهم اياه وخفّت مئونة الكلام عليه نسي ما يتذرع به المجادل في منازعة اكفائه وخصومه[1]

ولابد ان يراعي الخطيب أمورًا عدة هي:

١- ان يراعي ان الاكثار من الاشارة باليد خَطأ، وصرف للسامع عن الانتباه فعلى الخطيب ان يقلل منها.

٢-وان يأتي بها في مواضعها الملائمة لها المحتاجة إليها.

٣-وان يجعلها موافقة للمعنى وسابقة له فيشير، ثم ينطق واذا اجتمعت في الجملة صفتان جعل الاشارة للاخيرة كما لو قال الصهيونيون نعم لن يقووا على نضال العرب الابطال الاسود.

٤- وعليه ألا يحجب عن الناظرين وجهه بيده، أو يعترض بها جسمه، وأن تكون اشارته بيده سريعة ان كان الكلام حاداً لتطابق العاطفة، وان يستعمل يمناه اذا كانت رجله اليمنى الى الامام والعكس.

٥-وان يتذكر ان بعض الموضوعات لا تحتاج الى افتتان في الالقاء كالمناسبات الصغيرة، وان يكون الالقاء والتعبير موافقين لدرجة تأثره فاذا لم يكن انفعاله قوياً فليتكلم كما يحس.

جـ) جهارة الصوت وحلاوته :

الصوت نعمة من الله تعالى على من يغنّي، أو يخطب، لأنه يسحر ويبهر بحلاوة نغماته، وصفاء رناته، وحسن توقيعاته، وكثيراً ما يسحر الخطيب بصوته اكثر من سحره ببلاغته، فتتمايل النفوس بنغمة كما تتمايل الأفنان بنسيم السحر، والصوت الجهير القوي الذي يدوّي في الحفل من عُدَدِ الخطيب لامتلاك الجمهور

---

[1] ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١ ، ص٩١.

واسماعه كله، وقد ذاعت مكبرات الصوت في عصرنا هذا ولكنها تذهب بكثير من نغمات الخطيب ونبراته وتعبير صوته في الأماكن المغلقة أقوى أسماعا منه في الخلاء، وهو في الهواء الساخن أسرع سريانا منه في الهواء البارد. وعلى الخطيب ان يتجه بصوته الى وسط المجتمع لا إلى جانبيه ولا إلى فوق. وعليه أن يوقع بصوته فيجعل نبراته ونغماته ووقفاته ملائمة للأفكار والعواطف، فهو مبتهج تارة، وشاك تارة، وهو ساخط حيناً، ومتهكم حيناً ومتعجب حينا، فلابد أن ينوع صوته ليلائم شعوره، ويساعده على التعبير، كذلك مما ينبغي أن يراعيه العناية بمقاطع الجمل لتتصل في الآذان، فإن القطع المبهم ينطوي بين شفتيه فلا يُسمَع ولا يُفهَم. وإذا كانت الخطبة طويلة والمكان فسيحاً فعلى الخطيب أن يقتصد في صوته حتى لا يكل. ومما يساعده على الاحتفاظ بقوة صوته في الخطبة كلها أن ينطق متمهلا، لان التسرع والتعجل في النطق يضعف الصوت ويجهده.

وكان العرب قبل الإسلام يمدحون الخطيب الجهير الصوت، ويذمون خافته ولذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم وذموا صغره، قيل لأعرابي ما الجمال؟ قال طول القامة، وضخمُ الهامة ورَحَبُ الشِّدْق وبعد الصوت، ويقول الأعشى في وصف خطيب بشدة الصوت :

فيهم الخِصْب[1] والسماحة والنجدة جمعاً والخاطب الصّلاّقُ ويهجو بشار بخفوت الصوت بقوله :

ومن أعجب الأيام ان قمت ناطقاً

وأنت ضئيل الصوت منتفخ السُحْرِ

بل هم مدحوا جهارة الصوت حتى في غير خطبة، فقد مدح العباس بن عبد المطلب بأنه كان جهير الصوت وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فنادى العباس : يا

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ،جـ١، ص١١٩. والصلاق يعني الشديد الصوت. والسحر يعني الرئة، ينظر أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٣٦٨، م. ن، ص٢٨٩.

أصحاب سورة البقرة هذا رسول الله فتراجع القوم وأنـزل الله عـز وجـل النصـر وأتى الفتح. ومدّح العُمّاني هارون الرشيد [1] بقوله :

جهير العُطاسِ شديد النياطِ

جهيرُ الروّاء جهير النَّغمَ

وأثر عنهم ما يدل على أن قوة الصوت ترهب، فإن وفد الروم لما أتى عبد الملك بن صالح [2]، وهو في بلادهـم أقـام علـى رأسـه رجـالاً فـي السـماطين ذوي أعناق ضخمة ورؤوس عظيمة، ومناكب وأجسام وشوارب وشعور، فبينما هـم قيـام يكلمونه ومنهم رجل واقف خلف البطريق إذ عطس عطسـة ضـئيلة فلحظـهُ عبـد الملك فلم يدر أي شئ أنكر منه فلما مضى الوفد قال له: ويلك هلا إذا كنـت ضـيق المنْخر كَزّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج .

وبالغوا في ذلك الى حد لا يصدق فزعموا أن أبا عُرة الذي يقال له أبـو عـروة السباع – كان يصيح بالسبع وقد احتمل الشـاة فيخليهـا ويهـرب فضـرب النابغـة الجعدي المثل به في قوله :

---

[1] هارون الرشيد: هو هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي أبو جعفر خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق ولد بالري، بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ توفي في سناباذ مـن قرى طوس سنة ١٩٣هـ (ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملـوك جـ٩ ص٤٣- ص٤٤، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٣، ص١٣٩.

[2] عبد الملك بن صالح : هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله العباسي ، ولـي الموصـل للهادي سنة ١٦٧هـ وعزله الرشيد سنة ١٧١ هـ ثم ولاه المدينة وبلغه إنه يطلـب الخلافـة فحبسه ببغداد سنة ١٨٧هـ ، ولما مات الرشيد أطلقه الأمين وولاه الشـام والجزيـرة سـنة ١٩٣هـ فأقام بالرقة إلى ان توفي سنة ١٩٦هـ، ينظر: الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر (بيروت، ١٩٧٤م) جـ٢، ص١٢. (الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٣٣٤)

وأزجُر الكاشح العدوَّ ذا اغتا

بك عندي زجرا على أضَمِ[1]

زجْرَ أبي عروةَ السباع إذا

اشفق ان يلْتبِـــسَن بالغنمِ[2]

د) جمال الهندام :

الهندام المنسق يعزز ثقة الخطيب بنفسه ويكسبه في أعين الناس مهابة، والناس قد كانوا يتأثرون أول وهلة بالبزة الحسنة والمنظر الجليل، وكان العرب قبل الاسلام وما بعد الإسلام يلبسون العمائم ويفخمون منظرهم إذا ما خطبوا.

ذكر الجاحظ في كلامه على مذهب الهنود في البلاغة (وزَيْنُ ذلك كله وبهاؤه وحلاوته، وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة والالفاظ معتدلة واللهجة نقية، فان جامع ذلك السَّنُ والسَّمْتُ والجمالُ وطول الصمت فقد تم كلّ التمام مكمل كل الكمال)[3].

وروي أن إياس بن معاوية المزني[4]- وكان صادق الظن قوي الحدْس، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ومات سنة ١٢٢هـ اتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلسَ ورأوه أحمر دميما رث الهيئة قشيفا فاستهانوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا : الذنب مقسوم بيننا وبينك أتيتنا في

---

[1] على أضم يعني على حقد وغضب. ينظر : ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٣٨٤

[2] الجاحظ ، البيان والتبيين جـ١ ، ص١١٩

[3] ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين جـ١ ،ص٨٧. السمت حسن الهيئة، ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص٣١٢

[4] اياس بن معاوية بن قرة المزني أبو واثلة ، قاضي البصرة وأحد أعاصيب الدهر في الفطنة والذكاء قال عنه الجاحظ أياس من مفاخر مصر توفي سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م . (ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين جـ١، ص٥٦، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،جـ١،ص٨١. الزركلي، الأعلام ، جـ١، ص٣٧٦).

زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك[1].

على ان بعض الخطباء يعتمدون على مهابتهم المعروفة وشهرتهم الذائعة فلا يتأنقون في مظهرهم، واذا كان في هذا بعض الحق فان الخطيب المجهول يخطئ إن لم يهتم بمظهره وهندامه، لأنه من مقويات شخصيته، فمعاوية على حق حين نظر الى النّخار بن أوس العذري الخطيب الناسب في ناحية من مجلسة فأنكره وانكر مكانه زراية به وقال من هذا؟ فقال النخار: يا أمير المؤمنين ان العباءة لا تكلمك أنما يكلمك من فيها. لذلك كله اخالف، سهل بن هارون في دعواه ان الجمع يقضي للدميم الزري الهيئة على الوسيم البهي اللباس اذا تساويا في البلاغة قال سهل:

(لو ان رجلين خطبا، او تحدثا، أو احتجا او وصفا، وكان احدهما جليلا، وبهيا، ذا لباس نبيلا، وذا حسب، شريفا، وكان الآخر قليلا قميئا، وباذّ الهيئة دميما، وخامل الذكر، مجهولا ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسم، ولباذ الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه، ولصار التعجب منه سببا للعُجب به، ولكان الاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أصغر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه، وكبر في عيونهم، لأن الشيء من اغرب معدنه أغرب وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان اطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع)[2]

وهو رأي عماده الفرض والقياس، اذ لا يصبح قياسا وبعيداً غاية البعد من الواقع الشائع بين الناس ومن دراسة نفسية الجماهير.

---

[1] الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ١ ، ص٩٥

[2] ينظر: الجاحظ ، البيان والتبيين ،جـ١ ،ص٨٨

٥- جمال الخلقة :

ولست أقصد بجمال الخَلقْ أن يكون الخطيب وسيما، مليحا، أسيل الخد، أدعج العين، وانما اقصد أن يكون مقبول الصورة غير دميم ولا منفّر، لان ذلك يقربه إلى قلوب السامعين. والرجل الصحيح الجسم الحسن القامة لا يحتاج في إظهار شخصيته والتأثير في سامعيه إلى ما يحتاج إليه الضئيل الجسد الدميم الصورة، والناس مولعون بالقوة والسلامة والاستواء منذ كانوا. وتكلم علباء بن الهيثم السدوسي[١] لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان علباء أعور دميما، فلما رأى عمر براعته، وسمع حسن بيانه، اقبل يُصَمِّد فيه بصره ويُحدّره، فلما خرج قال عمر: لكل أناس في جميلهم خبرة. على ان براعة الخطيب، وبلاغته، وجهارة صوته، وروعة وقفته، قد تتغلب على دمامته. فقد كان الأحنف بن قيس [٢] صغير الرأس مائل الأنف، مسترخي الأذنين، متراكب الاسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، خفيف العارضين، مقوس الرجلين، لكنه كان خطيبا مفوها إذا تكلم جلّى عن نفسه.

لكن قبح الخلقة لم يعق واحداً من هؤلاء عن اختلاب سامعيه، لان جمال الخلقة من المكملات الثانوية للخطيب. وكأنما أراد ضَمرة بن ضَمرة[٣] هذا المعنى

---

[١] علباء بن الهيثم السدوسي : هو علباء بن الهيثم بن جريز السدوسي ، شجاع ، من الفصحاء أدرك الجاهلية والإسلام وشهد الفتوح في عهد عمر رَضِيَّ اللّهُ عَنهُ الله عنه وسكن الكوفة ثم دعا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام واستشهد في واقعة الجمل سنة ٣٦هـ / ٦٥٦ م. (ينظر: ابن حزم الأندلسي ،جمهرة انساب العرب ص٢١٧ ، الزركلي، الأعلام ج٥، ص٤٧٥

[٢] الاحنف بن قيس : هو الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي أبو بحر سيد تميم يضرب به المثل في الحلم ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه و سلم من الدهاة العظماء الفصحاء وسمي بالاحنف لحنف في رجله أي اعوجاج. (ينظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ن م ٧ ص٦٤ ، ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ، جـ١ ، ص١٩١)

[٣] ضمرة بن ضمرة : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي من بني دارم ، شاعر جاهلي وخطيب من الشجعان الرؤساء كان أسمه شقة بن ضمرة فسماه النعمان ضمرة و هو صاحب يوم ذات الشقوق من أيام العرب في الجاهلية. (ينظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) معجم البلدان، طبع دار صادر (بيروت ، ١٩٥٧ م) ، جـ ١، ص٩٢ ، الزركلي ، الاعلام ، جـ ٣ ، ص٣١١) .

في رده على النعمان بن المنذر ملك الحيرة[1]، فان النعمان لما نظر إليه ورأى دمامته ونحولة جسمه قال: تسمع بالمُعيديّ خير من أن تراه، فقال ضمرة: أبيت اللعن، ان الرجال لا تكال بالقُفزان[2]، وإنما بأصغريه قلبه ولسانه .

٨- سمو الخلق :

يقف الخطيب من الجمهور موقف القائد أو الرائد، يهدي إلى الحق، ويبصّر بالخير، ويحذّر من هلكة أو غفلة، ويشجع على قتال أو استبسال، ويدعو إلى هدوء وطاعة..الخ. فأن اشتهر بخيانة أو نفاق أو نفعية أو جبن أو رذيلة ما، كان أول هادم لمكانته، ومضيع لتأثير خطبته، وامترى السامعون في صدق كلامه وخلوص نيته.

فإذا ما كان حسن السمعة اثر كلامه في سامعيه، لأن حسن سمعته كالمقدمة للاقتناع بقوله، إذ إن مكانته الخلقية العالية تبعث على تصديقه، ومن العيب أن يدعو خطيب الى فضيلة، وهو معروف برذائله، أو يتحدث عن الحرية، وهو من أنصار الاستبداد، أو عن الصالح العام، وهو معروف بالحرص على منافعه الخاصة. وأخلاق الخطيب نفسه تنتهي به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة، ويملأ نفس الخطيب بالطمأنينة. وليس صحيحا أن نصدق قالة الذين كتبوا في الخطابة، من ان أمانة الخطيب ونزاهته لا دخل لها في الإقناع، فنحن نقرر على عكس ما يقولون أن (للصفات الخلقية التي يمتاز بها

---

[1] النعمان بن المنذر : هو النعمان بن المنذر بن أمرئ القيس اللخمي من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية وهو صاحب ايفاد العرب على كسرى وباني مدينة النعمانية على ضفة دجلة اليمنى مات في السجن سنة ١٥هـ/٦٠٨م ، (ينظر: ابن الأثير، الكامل ، جـ١ ، ص١٧١- ص١٧٣. الزركلي ، الأعلام ،جـ٩، ص١٠)

[2] القفزان يعني جمع قفيز وهو المكيال . ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٥٤٦

الخطيب اكبر الأثر في قوة الإقناع[1])، عليه ان يكون شجاعا في موقفه، وفي إعلان رأيه، ولا يرتعد، ولا يماري ولا يضطرب، فإذا ما وثق في نفسه وعرف ما يريد أن يقول، وعبّر عنه تعبيرا خطابيا فنيا فقد حقق الغرض المنشود. وكثيرا ما يضطر إلى تفنيد حجج خصمه في السياسة والقضاء فليفندها في أدب رفيع. وإذا هاجمه زميل فليتلق هجومه بصبر وهدوء؛ لأن هذا يرفع مكانته، ويبعد عن اخطل فكرته. وان غضب فليغضب غضباً خطابياً لأسباب فيه. وقد تدعو الضرورة في خطبة حفلية أو دينية إلى إبراز التعاون بين الخطباء، كأن يخفق أحدهم فيشيد به تاليه، ويثني عليه، غير متظاهر بأنه يحابيه، أو يجامله، أو يجبر زلته، وكثيرا ما تتأثر الجماعة بهذا التعقيب وتتقبله بل تعتقده.

---

[1] ينظر: طاليس ، آرسطو، الخطابة ، لترجمة العربية القديمة، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، (بيروت ، ١٩٧٩) ، جـ١ ،ص١٠١

المبحث الرابع

نشأة الخطابة وعوامل رقيّها

الخطابة ضرورة اجتماعية وسلاح معنوي :

منذ اجتمع الناس في مكان واحد استوطنوه، وتفاهموا بلسان واحد، عرفوا الخطابة، لانه من الطبيعي ان يختلفوا في رأي أو عقيدة، ومن الطبيعي ان يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة، فيحاول المتفوق ان يستميل إليه من يخالفون، وان يقنعهم، فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب وقوله خطبة، ثم انه من الطبيعي أيضا ان تنشب أمور تستدعي تعاون المجتمع، وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك أو اتقاء ضير، فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها عُدّتهم في ذلك خطابتهم.

على ان الناس في حياتهم القديمة تسلحوا بأسلحة مادية للدفاع والعدوان، وتسلحوا أيضا بسلاح معنوي هو اللسان، ومازالت الخطابة إلى الآن سلاحا مرهفا تتصاول به الأمم، وان جيّشت جيوشها وافتنّت في اختراع القذائف والمدمرات.

لذلك لم يَخلُ من الخطابة سجلُّ أمة وعى التاريخ ماضيها، فقد حفظها خط آشور المسماري، قيدها خط الفراعنة الهيروغلوفي، ثم رواها تاريخ اليونان السياسي والأدبي منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه، وبها أذاع الدين انبياء بني إسرائيل، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص.

ولذلك ارى ان الخطابة قد وجدت منذ ان وجدت الخليقة أي منذ أن خاطب الله سبحانه وتعالى الملائكة وقال: (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون)[1].

---

[1] سورة البقرة آية رقم (٣٠).

أما عوامل رقيها[٢] فيمكن إجمالها بما ياتي:

١) الحرية :

انما تزدهر الخطابة في عصور الحرية الفكرية والقولية، فيتحرر كل شخص في تفكيره، وينطلق إلى إذاعة ما اهتدى إليه، وهو آمن عقاب الحاكم الظالم، واستبْداد المسلَّط الغاشم، ولا يتهيب الخطباء موضوعا أو محفلا ويحتذي بهم غيرهم من الطامحين إلى الشهرة، أو التواقين إلى الإصلاح فتنتشر الخطابة في الشعب، وتتعدد انواعها، وتعبر تعبيرا صادقا عن عواطف القائلين. والخطباء على كثرتهم يتسابقون إلى الإجادة ويتنافسون في طيران الصيت.

٢) **طموح الأمة إلى حياة أرقى:**

وتزدهر الخطابة أيضا إذا تفشى في الأمة سخط على نظام من نظمها الدينية او السياسية أو الاجماعية، وارتبط هذا السخط بطموح إلى مثل أعلى ، وحياة أرقى، وجدّ في تبديل الحالة وتحقيق المثل.

وقد ازدهرت الخطابة عند العرب قبل الاسلام لانهم، عاشوا طلقاء في جزيرتهم لا يحد من حريتهم تعسف من حاكم، او نظام جائر، فهم أحرار في تفكيرهم وفي البوح بها، والدعوة لها، من أجل حريتهم في التنقل في هذه البيئة الرحبة. ثم أتى الإسلام يدعو إلى توحيد الخالق سبحانه، ونبذ أديانهم الوثنية، وكان صراع عنيف معنوي ومادي بين الدعاة الى الجديد وبين المستمسكين بالقديم، وانظم الصراع الى الحرية، فانتعشت الخطابة، ثم قامت الدولة الأموية وانقسم المسلمون الى شيع سياسية ودينية ولكل حزب خطباؤه المصاقع، وهم جميعاً أحرار لا يدينون إلا لعواطفهم الثائرة فأينعت الخطابة . فلما آلت الخلافة إلى بني العباس وأرسوا قواعد ملكهم ونكلوا بالأحزاب المخالفة لهم، وضلوا عن المثل الأعلى الذي يجب ان ينطلقوا إليه، أو ضلَّ عنهم هذا المثل، ركدت الخطابة وبحّ صوتها حتى اختنق إلى أوائل العصر الحديث.

---

[٢] ينظر:الدكتور محمدطاهر درويش ،الخطابةفي صدر الاسلام ،ص ٧٧.

٣) **الأمية وسرعة البديهة :**

وإذا تفشت الأمية في شعب لجأ الى الخطابة وسيلةً للإقناع والاستمالة، وإذا كان انتشار التعليم وذيوع الصحافة يرقى الخطابة من حيث موضوعها وفنها، فانه يضعفها من حيث شمولها وذيوعها . وهذه الأمية مشفوعة إلى استعداد العرب الفطري لإجادة القول رَقَت الخطابة عندهم، لان أميتهم أرهفت حوافظهم وذواكرهم فكانوا يتدفقون في الخطابة تدفقاً. وأميتهم بعثت في نفوس المعمرين منهم ان ينفضوا ماضيهم وأحداثهم إلى السامعين، ليعظوهم او لينفسوهم عن انفسهم بالتحلل من بعض ما يثقلهم من اخبار وأسرار، أو ليُزهوا بما كان لهم فيه من شان عظيم، ومن هذه الأمية المربية للحافظة والذاكرة نشأت سرعة البديهة وإسعاف الخاطر، مما جعل أبا حيان[١] يروي في مقابساته " نزلت الحكمة على رؤوس الروم وألسن العرب وقلوب الفرس وأيدي الصين ... وقد زادتهم جزيرتهم شرا، ولكنهم عوّضوا الفطنة العجيبة والبيان الرائع والتصرف المفيد، والاقتدار الظاهر ... ووصلوا بحدة الذهن الى كل معنى معقول وصار النطق الذي بان به غيرهم من الاستخراج مركوزا في انفسهم من غير دلالة عليه ...

بل فشا فيهم كالالقاء والوحي، لسرعة الذهن وجودة القريحة". ويقول الجاحظ[٢]

---

[١] ابو حيان التوحيدي : هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، ابو حيان فيلسوف، متصوف معتزلي وهو شيخ الصوفية ولد في شيراز وأقام في بغداد وصحب ابن العميد والصاحب بن عباد من زنادقة الاسلام من كتبه، الامتاع والمؤانسة، المقابسات، البصائر والذخائر، توفي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، (ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ ١،ص٣٣٩)، الزركلي، الاعلام ، جـ٥ ص١٤٤

[٢] الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: وهو عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له مصنفات ، الحيوان ، البيان والتبيين ، البخلاء. ولد وتوفي في البصرة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م، (ينظر: البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١٢، ص٢١٢، ابن خلكان. وفيات الاعيان، جـ١، ص٣٨٨. ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ٦، ص ص٥٦-٨٠. ابن الكلبي، جمهرة النسب، ص٢٨٩.

(وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اصالة فكرة ولا استعانة. وانما هو ان يَصرِف وهمه الى الكلام ، والى رَجز يوم الخصام ، او حين ان يَمتحَ على رأس بئر، او يحدو ببعير، او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب، فما هو إلا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني ارسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يُدرّسه أحداً من ولده وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لايتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر، وهم عليه اقدر واقهر، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه في البيان ارفع، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم اسهل، وهو عليهم ايسر، من ان يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله[1].

٤) **الأحداث السياسية والدينية والإجتماعية :**

وإذا اضطرت الأمة الى تغيير سياستها، او تبديل دينها، او إصلاح نظام اجتماعي من نظمها، انبعث منها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها، فيدعون الى الجديد، ويكشفون عن مزاياه، ويزعزعون القديم من النفوس، وينفرون منه حتى يقوضوه. ولكن في الناس من يحرص على القديم ويُلاحي عنه فيصطرع هؤلاء وهؤلاء، وهم جميعا يتذرعون بالخطابة، وان تسلحوا بأدوات القتال وقد مرّ اثر الإسلام والنصرانية واثر الدعوات السياسية في رفع شأن الخطابة.

٥) **الحروب والثورات :**

قد تشتعل حرب بين أمتين، لطمع إحداهما في الأخرى، أو منافستها لها في مكانة أو مجال حيوي، أو جريا وراء شهوة الغلب، أو انتقاماً وثأراً فتنطلق الألسنة داعية إلى جمع الكلمة، ووحدة الغاية، وبذل المال والروح، كما كان يحدث بين القبائل العربية .

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٣، ص ص٢٠-٢٦

٦) **الأحزاب السياسية :**

وإذا تعدت الأحزاب السياسية في أمة كثر خطباؤها وارتقت خطابتها، وكلما تعددت الأحزاب والمذاهب والخلافات الفكرية في أي مجتمع نجد ان الخطابة تزدهر وكان في تعدادها انعاش للخطابة وهناك عوامل اخرى تكون مسببة في رقي الخطابة، منها انتشار التعليم، وكثرة المؤتمرات، وتعدد المشكلات العالمية بين الأمم، كما كان بين العرب والرومان، والفرس والأحباش وغيرهم[١].

---

[١] الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص٤٥ -٤٩.

obeikandl.com

المبحث الخامس

أشهر الخطباء في عصر ما قبل الإسلام مع نموذج لخطبهم

لئن حفل التاريخ بما خلفه العرب من شعر، ولئن كان ذلك الشعر مدعاة للفخر والاعتزاز، لانه صوّر عقلية الأمة ورسم خطوط حياتها، فلقد حفل هذا التاريخ بالنثر العربي، الذي لم تكن أهميته لتقل عن أهمية الشعر، فالنثر الجاهلي من خطبة، ومثل ووصية، صوّر ما يتلجلج في صدر البدوي من آمال، واحتضن ما يدور بخلده من مشاعر، وأوصل إلى الأسماع ما يريد بثه من لواعج وأفكار، وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية والأدبية وجدنا عددا كبيرا من الخطباء، وعليه فكان لكل قبيلة من القبائل خطيبها، بل لكل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب، والجاحظ قد عرض أسماء عدد كثير من أسمائهم في كتابه البيان والتبيين، منهم قيس بن شمّاس في يثرب وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، أما مكة المكرمة فمن قدماء خطبائها هاشم، وأمية ونُفَيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب رَضِي الله عنه، وكان فيها خطباء كثيرون وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة وهي تشبه مجلس شيوخ مصغرا كانوا يجتمعون فيها ويخطبون[1] ويتحاورون، وممن عُرف فيها بالخطابة عُتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو الأعلم وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه واله وسلم "يا رسول الله أأنزع ثنيتّيه[2] السفليين حتى يُدلَع[3] لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا فقال الرسول صلى الله عليه واله وسلم "لا أمثّل فيمثل الله بي، وان كنت نبيا، دعه يا عمر،

---

[1] ينظر: الحلبي ،ابو الفرج نور الدين علي بن ابراهيم بن احمد الحلبي الشافعي، (ت١٠٤٤هـ /١٦٣٤م). السيرة الحلبية، وهو الكتاب المسمى انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، ضبطه وصححه: عبد محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، (بيروت ،٢٠٠٠م) ،جـ٢، ص١٢٤.

[2] الثنيتان بمعنى الأضراس في مقدمة الفم . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٨٧.

[3] يدلع معناه ستوخي فلا يحسن النطق. ينظر: م. ن، ص٢٠٩ .

فعسى ان يقوم مقاماً تحمده[١]". وممن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظّرب في عدوان، وربيعة بن حُذار[٢] في قبيلة أسد وحنظلة بن ضرار في ضبّة وقد طال عمره حيث انه من المعمرين حتى أدرك يوم الجمل[٣]، وعمر بن كلثوم في قبيلة تغلب، وهاني بن قبيصة الشيباني في قبيلة شيبان وهو خطيب يوم ذي قار[٤]، وزهير بن جناب في قبيلة كلب وقضاعة [٥] ، وابن عمار في قبيلة طي وهو خطيب[٦] مذْ حج كلها، ومن خطباء غطفان قيس قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوما إلى الليل، ومن خطباء تميم المفوّهين اكثم بن صيفي وضَمرة بن ضَمرة، ويروى انه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته فقال للنعمان "تسمعُ بالمُعيْدي لا ان تراه فقال أبيت اللّعن " ان الرجال لا تُكال بالقُفزان[٧] ".

ومن خطباء تميم أيضا عطارد[٨] بن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ،جـ١، ص٣١٧

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ،جـ١، ص٣٦٥

(٣) ابو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، جـ١٠ ، ص٦١

(٤) ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين ، جـ١ ،ص٣٤١. أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، جـ ٢٠، ص١٣٧، ابو علي القالي، الأمالي جـ١ ، ص٩٢

(٥) ابو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، جـ٢١ ، ص٦٥

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ١ ، ص٣٤٩

(٧) القفزان يعني جمع قفيز وهو مكيال عراقي. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٥٤٦

(٨) عطارد بن حاجب بن زرارة: هو عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي خطيب من سراة بني تميم، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فكان خطيبه واستعمله الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على صدقات بني تميم، توفي نحو سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م، ينظر: (ابن سعد، الطبقات الكبرى، م١، ص٢٢٤. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص١٧٨. الزركلي، الاعلام، جـ٥، ص٣٠. الأمدي، سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم (ت٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) المؤتلف والمختلف تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة، ٢٠٠٠م) ص٢٩٩.

بين يدي الرسول صلى الله عليه واله وسلم، ومنهم عمر بن الأهتم المنقري[1] ولم يكن في بادية العرب في زمانه اخطب منه، ويُروى ان الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم سأله عن الزبرقان[2] بن بدر فقال " مانع لحوزته، مطاع في أذنيه " فقال الزبرقان " إما انه قد علم اكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي فقال

عمرو: اما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته الا ضيّق الصدر زَجِرُ المروءة، لئيم الحال حديث الغنى، فلما رأى انه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الانكار في عيني رسول الله قال " يا رسول الله! رضيتُ فقلتُ احسن ما لا علمت، وغضبتُ فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة، فقال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم " ان من البيان لسحرا ". ومن خطباء بني منقر التميميين أيضا قيس بن عاصم المنقري[3] الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه واله حين رآه: هذا سيدُ أهل الوبر[4] وهو الذي قال فيه عبْدة بن الطبيب حين

---

[1] عمرو بن الأهتم المنقري : هو عمر بن سنان بن سمي التميمي المنقري أحد السادات الشعراء والخطباء في الجاهلية والإسلام من آهل نجد ولقب أبوه بالأهتم لان ثنيته هتمت يوم الكلاب وكان يدعى المكحل لجماله وهو الذي قيل فيه : انما شعره حلل منشّرة بين أيدي الملوك ، تأخذ منه ما شاءت ، ولم يكن في بادية العرب اخطب منه. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٧، ص٢٧. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٣٥٥.

[2] الزبرقان بن بدر: هو الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان وَهُوَ من أسماء القمر لحسن وجهه ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى صدقات قومه وكف بصره في اخر عمره وكان فصيحا وشاعرا واديبا وخطيبا وقال فيه النابغة تعدوا الذئاب علَى من لا كلاب له. (ينظر: ابن سعد ، الطبقات الكبرى، م٧، ص٢٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ١، ص٥٤٣ .

[3] قيس بن عاصم المنقري : وهو من قبيلة منقر من خطباء العرب قبل الاسلام توفي سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م. (ينظر: : الجاحظ، البيان والتبيين ،جـ١، ص٢١٩، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م١، ص٢٥٥.

[4] الجاحظ، البين والتبيين ،جت٢،ص٣٢ .

مات[1]

وما كان قيسٌ هُلْكهُ هُلك واحدٍ

ولكنه بُنيان قومٍ تهدّما

ومن الخطباء المشهورين عتبة[2] بن ربيعة وكذلك من خطباء العرب قيس[3] ابن زهير ولبيد[4] ابن ربيعة العامري وكذلك من خطباء العرب المشهورين الفضل ابن[5] عيسى الرّقاشي كان من اخطب الناس وكان متكلما قاصا مجيدا وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء ولا يركب إلاّ الحمير.

---

[1] الجاحظ البين والتبيين ، جـ٢ ، ص٣٥٣ .

[2] عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قريش خطيباً، نافذا قتل في معركة بدر الكبرى سنة ٢هـ-٦٢٤م. ينظر: السهيلي، الروض الانف، جـ١، ص٣٣٧. الحلبي، السيرة الحلبية، جـ٢، ص١٣٨

[3] قيس بن زهير هو قائد حرب داحس والغبراء وكان حكيما خطيبا وشاعرا واحد السادة القادة في العراق ويلقب بقيس الرأي توفي في عمان سنة ١٠هـ/ ٦٣١م. (ينظر : الزركلي ، الاعلام ، جـ٤ ، ص٢٥٩-ص٣٦٠. السهيلي ، الروض الانف، جـ١، ص ١٢١ .

[4] لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري احد الشعراء والخطباء الفرسان والاشراف في الجاهلية من اهل عالية نجد ادرك الاسلام ووفد علَى النبي ويعد من الصحابة والمؤلفة قلوبهم توفي سنة ٤١هـ /٦٦١م . (ينظر : ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، ص١٣٥. البغدادي ، خزانة الادب للبغدادي ،جـ١،ص٣٣٧. الزركلي، الاعلام ، جـ٦، ص١٠٤

[5] الفضل بن عيسى الرقاشي. (ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٣٠٦. ابن قتيبة: ابومحمد عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ /) عيون الاخبار ، المؤسسة المصرية العامة (مصر ، ١٩٦٣) ، جـ١، ص١٦٠.

ومن خطباء العرب المشهورين قُس[1] بن ساعدة الايادي

التعريف به: هو قُس بضم القاف بن ساعدة بن عمر بن عدي بن مالك من بني اياد احد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان اسقف نجران، ويقال انه اول عربي خطب متوكئا على سيفه، او على عصا واول من قال في كلامه (اما بعد) وكان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه وهو معدود في المعمرين طالت حياته وادركه النبي صلى الله عليه واله وسلم قبل النبوة ورآه في سوق عكاظ وسأل عنه بعد ذلك فقال (يُحشر امة وحده) توفي سنة ٢٣ق.هـ/٦٤٠م .

ونحن إذا تمثلنا بخطبة قُس بن ساعدة الايادي، وهو يعظ الناس في عكاظ وجدنا السجع في مثل هذه الخطب يظل بارزا في تضاعيف النص ليؤدي نفس مهمته التأثيرية ويقال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم حضر هذه الخطبة لقس بن ساعدة وكان يومئذ فتى في مقتبل العمر على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام مؤنق و يروى ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه قال أيضا لست انساه بسوق عكاظ فقال حين خطب فأطنب ورغب، ورهب، وانذر، وقال:

نموذج لاحدى خطب قس بن ساعدة الأيادي

(أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، انه من عاش مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات. وأباء وأمهات، وأحياء وأموات. وجمع وشتات، وآيات بعد آيات. ليل موضوع، وسقف مرفوع

---

[1] ينظر: الزركلي ، الاعلام ، جـ٥ ،ص ٣٩. أبو الفرج الاصفهاني، الاغاني، جـ١٤، ص٤٠، ابن سيد الناس، عيون الأثر في أخبار المغازي والسير، جـ١ ص٦٨. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٩م). تلخيص الخطابة، مطبعة المثنى، (بغداد، ١٩٧٠م) ص ص١٥- ١٦

ونجوم تغور وأراضي تمور، وبحور تموج، وتجارة تروج، وضوء وظلام، وبر وآثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب، إلا ان أبلغ العظات، السير في الفلوات، والنظر إلى محل الأموات. ان في السماء لخبراً وان في الأرض لعبراً ليل داج، وسماء ذات ابراج وأرض ذات رتاج وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا)[1].

وهي طويلة يتخللها شعر وتبرز فيها جميع سمات الخطيب الوعظية من سجع وفقرات قصار، ولغة منتقاة وألفاظ مانوسة خفيفة الوقع على النفس والسمع ومعاني تدعو إلى الترهب والانقطاع عن الدنيا وهي على بساطة معانيها تلمس من النفس الانسانية أعمق أحاسيسها و تثير في القلب مشاعر الهلع والخوف من سوء المصير وفي العقل الميل إلى التأمل، والتفكير العميق، وذلك باعتمادها عنصر التناقض الفظيع بين الحياة والموت والنور والظلمة وغير ذلك.

أي ان عقلية قُس بن ساعدة كانت عقلية تكاملية تستوفي الأشياء جميعها، بإحضار الشيء ونقيضه، لكي تكتمل الصورة أمام أبصار السامعين، أو القارئين، ولا تستوجب هذه الخطبة أية تقاليد مما ذكر في الخطبة الحماسية وان كان قُس قد ادخل تقاليد الخطبة الحماسية في الخطبة الوعظية ثم الموسمية وذلك لانه على زعم الرواة أول من خطب بين الناس وهو فوق جمل، فقال الباحثون ان قسا أول من أبتكر الخطبة على مرتفع من الأرض واعتمد على عصاه فصار ذلك تقليدا وعليه فكان كل خطيب يحمل في يده العصاء عند خطبته حتى أصبح عرفا عند الخطباء العرب قبل الإسلام وبعده .

ولا يفوتني ان أذكر في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام ما قاله سيدنا الحسن رضي عنه وأرضاه وعليه السلام : ((أفضل الناس ثوابا يوم القيامة المؤمن المعمر ؟

---

[1] الجاحظ، البين والتبيين ، جـ١، ص٢٧.

قالوا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا انبئكم بخياركم ؟)

قالوا : بلى يا رسول الله

قال : أطولكم أعمارا في الإسلام إذا سددوا)[1]

وزعموا ان تُبّعا الفزاري كان من المعمرين وانه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة في فترة عيسى بن مريم عليه السلام في الجاهلية وستين في الإسلام قال له أخبرني عما رأيت في سالف عمرك ؟

قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة و يوما في أثر يوم ورأيت الناس في جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع، وبين قوي يظلم وضعيف يُظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحيّ يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود، ومحزون بمفقود.

ومن خطباء العرب المشهورين الملبب بن عوف بن سلمة بن عمرو الجعفي وهذا نموذج من خطبة ألقاها يواسي أحد الخطباء الذي فقد ولده وكان مسرورا به ولكن ركب ذات يوم فرساً صعبا فكبابه فرسه فوقصه فجزع عليه أبوه جزعا شديدا، وامتنع عن الطعام، واحتجب عن الناس واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه فقام خطباؤهم يؤسونه، ومنهم الملبب فقال: في حضرة الملك سلامة ذي فايش، الذي فقد وله هذا، وكان الملك هذا أيضا من خطباء العرب انذاك فقال: (أيها الملك، ان الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتحلي لتمر، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب وكل مصيبة تخطأتك جلل، ما لم تدن الآجل و تقطع الأمل وان حادثا ألمّ بك فاستبد بأقلك، وصفح على أكثرك لمن أجل النعم عليك، وقد تناهت إليك انباء مَن رزء فصبر، وأُصيب فاغتفر، إذ

---

[1] الابشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت٨٥٠هـ/ ١٤٤٥م) المستطرف من كل فن مستظرف، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٨٩م) م١، ص٩٤.

كان شوىً[1] فيما يرتقب ويحذر فاستشعر اليأس عما فات إذا كان ارتجاعه ممتنعا ومرامه صعبا، فلشيء ما ضربت الأسى، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .

ومن الخطباء العرب المشهورين :

أبو طالب[2] بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم

التعريف به مع نموذج لإحدى خطبه .

أبو طالب والد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المتوفى سنة (٣ق هـ /٦٢٠م) واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم من قريش وكافل النبي ومربيه ومناصره، كان من أبطال بني هاشم من قريش ورؤسائهم ومن الخطباء العقلاء وله تجارة كسائر قريش. نشأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم في بيته وسافر معه إلى الشام في صباه بتجارة، دافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم في دعوته وحماه، وصدّ قريش من الاعتداء على ابن أخيه ولد بمكة وتوفي سنة ٣ق. هـ وقيل اسمه عمران وقيل اسمه ذا الكفل وقيل اسمه شيبة .

وان أشرف مثل نستشهد به هي خطبة أبي طالب بن عبد المطلب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة بنت خويلد فهي انضج ما لدينا من خطب الزواج في أُخريات العصر الجاهلي حيث قال:

---

(١) شوى بمعنى هين ، يسير و الشوى أيضا رذال المال. (ينظر : أبو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص٣٥٢). ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٣٥٢

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص١٦١. اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، جـ ٤ ، ص١٤٢ الزركلي ، الاعلام ، جـ٤، ص٣١٥ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢ ، ص٣٤،الزركلي ،الاعلام،جـ٤،ص ٣١٥ الجنابي ، عبد الكريم أبراهيم دوحان ، انساب الطالبين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد التاريخ العربي للدراسات العليا ، (بغداد ، ١٩٩٩م) ، ص٣٤.

(الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوبا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم ان محمد بن عبد الله، ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، براً وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا. وان كان في المال قل، فانما المال ظل زائل، وعارية مسترجغة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعليّ)[1]

وأبقى لنا التاريخ على صيغة كانت قريش ترددها في أثناء خطبة النساء في الجاهلية فتقول:

باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف باسمك اللهم ولك ما سألت، ولنا أعطيت[2] ويبدو ان هذا النص كان مقدمة تقليدية للخطبة ثم يأتي المضمون أما عبارة (الحمد لله) التي وردت في الخطبة أي خطبة أبو طالب أو (بسم لله) فهما صيغتان إسلاميتان، ولا ندري ان كان الرواة المسلمون قد أبدلوها في خطبة أبي طالب، أم ان الرسول صلى الله عليه وسلم اقترحها على عمه يومئذ، وأما سبب قيام أبي طالب خطيبا في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم مع ان الرسول هو من هو في العلم والمعرفة، والبيان فسببه انهم جرت العادة بينهم إذا أراد عظيم من عظمائهم أو شريف من أشرافهم ان يتزوج، قام كبير من أهله أو سيد من عشيرته ليخطب باسمه الفتاة التي اختارها لنفسه شريكة حياته .

وقد بقي تقليد خطبة الزواج لدى الأمويين حتى زوال خلافتهم . ومن خطباء العرب المشهورين قبل الإسلام :

---

[1] الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب، (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، اعجاز القران ، ط ٢ ، دار الندوة الجديدة ، (بغداد ، ١٩٧٠) ، ص١٢٦. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ ، ص٢٧ ، القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا، جـ ، ص٢١٣ ، أحمد الحلبي، السيرة الحلبية ، جـ١، ص١٣٣ ، أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطبة العرب ، جـ ١ ، ص٧٧ ،

[2] الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ١ ، ص٤٠٨

هانئ بن قصبية [1] الشيباني .

هو هانئ بن قصيبة بن هانئ مسعود الشيباني ، أحد الشجعان العرب الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي كان سيد بني شيبان، وأسّره وديعة اليربوعي يوم الغبطيين في الجاهلية وهو بين تميم، وشيبان ظفرت فيه تميم وأسر هانئ، أدرك الإسلام و لم تشر المصادر إلى وفاته، وانما أشارت إلى انه توفي في الكوفة وهذا غير صحيح لان المتوفى بالكوفة هو هانئ بن عروة وهذا ما يؤيده ابن حزم في الجمهرة وهو ان عبيد الله بن زياد بن ظبيان المتوفي سنة ٧٥ هـ كان زوج (الزعوم) بنت إياس ابن شعبة بن هانئ

نموذج لإحدى خطبه في موقعة ذي قار يحرض قومه على قتال الفرس.

(يا معشر بكر، هالك[2] معذور خير من ناج فرور، ان الحذر لا ينجي من القدر، وان الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور، قاتلوا فما للمنايا من بدٌ).

ومن خطباء العرب المشهورين والمعمرين حكيم العرب وقاضي الصحراء:

أكثم بن صيفي

هو أكثم[3] بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخشان بن معاوية بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم و قيل انه أكثم بن صيفي بن عبد العزى سعد بن ربيعة بن

---

[1] ينظر : الجاحظ ، البيان و التبيين ، جـ ٣ ، ص١٦١. الزركلي ، الاعلام ، جـ ٩ ، ص٥٢

[2] ينظر: أبو علي القالي ، الامالي ، جـ ١ ، ص٩٢ . أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، جـ ٧ ، ص ٣٧ ،

[3] ينظر: السجستاني ، المعمرون ، ص١٠ ، و قيل (رباح بالباء الموحدة كما ورد عند ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة ، جـ ١ ، ص١١٣). أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب، جـ ، ص٣٧ .

أصرم من ولد كعب بن عمرو بن تميم وقيل انه اكرم بن صيفي بن عبد عزى بن ربيعة بن اصرم من ولد كعب بن عَمرو[1] كان أكثم على ما تروي المصادر التاريخية من المعمرين إلا ان تلك المصادر تختلف في تحديد الفترة الزمنية التي عاشها ففي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني انه عاش ٣٣٠سنة لكن السجستاني يعود فيقول وقيل ١٩٠ سنة [2] وجاء في المستطرف انه[3] عاش ٣٦٠ سنة فنحن نرى اختلافاً واضحا بين الروايات ومهما يكن من أمر فان الرجل عمر طويلا يدل على هذا خطبته في يوم الكلاب الثاني اذ جاء فيها انه نيّف على التسعين ونحن نميل الى رواية السجستاني الثانية من انه عاش ١٩٠ سنة وأدرك الاسلام وقصد المدينة في مائة من قومه، يريدون الإسلام، وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه ولكنه توفي قبل ان يرى النبي محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وهو المعني في قوله تعالى (ومنْ يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما)[4]

أخباره كثيرة ولعبد العزيز بن يحيى الجلودي في كتاب أخبار أكثم من كلامه (من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ، ومن لم يعتبر فقد خسر).

وقد توفي أكثم بعد ان أدرك الاسلام ولكنه لم يسلم لانه توفي في الطريق الى المدينة لملاقاة الرسول الكريم وفي قصة سفره الى المدينة اختلاف: فقد أورد أبو حاتم السجستاني في كتابه المعمرين، انه نادى في قومه فتبعه منهم مائة رجل حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال، كره ابنه (حُبيش) مسيره فأدلج

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان و التبيين، جـ ٣ ، ص٢٥٥ ، الأعلام للزركلي ، جـ ١ ، ص٣٤٤

[2] ينظر: السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي (ت ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) ، كتاب المعمرين والوصايا، مطبعة السعادة ، (القاهرة ، ١٩٠٥ م) ، ص ص١٠ -١١

[3] ينظر: الابشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، (ت ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٥م)، المستطرف في كل فن مستظرف، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، ١٩٨٩ م) ، جـ٢، ص٣٣

[4] سورة النساء من الآية رقم (١٠٠)

على ابل أصحاب أبيه فنحرها وشق قربهم ومزاداتهم فأصبحوا ليس معهم ماء، ولا ظهر، فجدهم العطش وأيقن أكثم بالموت فقال لاصحابه، أقدموا على هذا الرجل فاعلموا باني أشهد ان لا إله إلا الله وانه رسول الله. وفي كتاب أسد الغابة انه لما بلغ أكثم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل اليه رجلين يسألونه عن نسبه وما جاء به فأخبرهما، وقرأ عليهما (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظم لعلكم تذكرون)[1] فعادوا الى أكثم وقرأوا عليه الآية فلما سمع أكثم ذلك قال يا قوم أراه يأمر بمكارم الاخلاق وينهي عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا أذنابا، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا آخرا، فلم يلبث ان حضرته الوفاة، فأوصى أهله: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فانه لا يبلى عليها أصل، ولا يهتصر عليها فرع[2]...

وفي مجمع الأمثال للميداني [3] انه لما ظهر النبي بمكة بعث أكثم ابنه حُبيشا فأتاه بخبره، ونحن نرى الاختلاف واضحا فهي بين مكة والمدينة تارة وهي بين رجلين من قومه وابنه حُبيش تارة أخرى، و نحن نميل الى الرواية التي تقول انه أرسل ابنه الى الرسول الكريم لقوله في خطبته (ان ابني شاقه هذا الرجل مشافهة[4] وهذا ما يرويه المدائني في كتابه مجمع الأمثال وكذلك اختلفت المصادر في تفسير الآية ١٠٠ من سورة سورة النساء التي يقال انها نزلت بحق أكثم (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله عليما خبيرا) فقد جاء في تفسير ابن كثيرانها نزلت بحق ضُمرة بن

---

[1] سورة النحل آية رقم (٩٠).

[2] ينظر: ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد ابراهيم البنا واخرون، مطابع دار الشعب (القاهرة، ١٩٧٠م) جـ١، ص ١١٢.

[3] ينظر: الميداني، مجمع الامثال، جـ٢، ص ٢٦٧.

[4] ينظر: ابو حاتم السجستاني، كتاب المعمرون والوصايا، ص ١٠.

جندب الليثي أو خالد بن حزام وفي مجمع البيان والجلالين انه جندع ابن ضمرة ويشير تفسير ابن عباس إلى انها نزلت بحق أكثم بن صيفي ثم نزلت في جندب بن ضُمرة وجاء في أسباب النزول للسيوطي انها نزلت في حبيب بن ضمرة وكان شيخا كبيرا حمله بنوه على السرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق يمينه على شماله وقال اللهم هذه لك وهذه لرسولك، الا ان المصدر نفسه يذكر انها نزلت بحق أحد الناس من بكر لم يستطع ان يشهد بدرا فمات في الطريق[1] وعليه فقد توفي أكثم سنة ٦٣٠م إلا ان الدكتور عمر فروخ يرى انه توفي سنة ٦١٢ م بعد ان أسنّ كثيرا وقد تبوأ في تميم منزلة [2] عظيمة فكان خطيبها المفوه وحكيمها الصائب وكان عالما بانساب العرب، وأخبارها. لا جدال ان أكثم يعد من خطباء الجاهلية المشهورين، وخطبه تمثل ما وصل إليه العرب من فصاحة في الاسلوب وجودة في التعبير، ولابد هنا ان نشير الى مقالة المرحوم طه حسين عن الخطابة من انها (لم تكن شيئا ذا غناء وانما الخطابة العربية فن إسلامي خالص)[3] ، وحديث طه حسين هنا شانه شان أحاديثه عن الكثير من أمور الادب الجاهلي. وإذا أردنا ان نعالج الأساليب الفنية لخطب أكثم نجد انها لا تخرج في الغالب عما يقال عن الخطابة الجاهلية من انها تعتمد الفطرة، وعفو الخاطر، وانها منفرطة الافكار غير متماسكة الأجزاء تعتمد الجمل المحكمة الاداء مع عناية غير مقصودة بالسجع والتكرار، وكلام أكثم في هذا الفن نثار منثور، وأفكار ملتمعة من غير رابط ولا جامع، وانه لمن الصعب، بل من

---

[1] ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر الشافعي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) باب النقول في اسباب النزول، تعليق: محمد كريم بن سعيد راجح، ط١، مكتبة النهضة (بغداد،١٩٤٨م)، ص ١٠٢.

[2] ينظر: بروكلمان، كارل، تاريخ الادب العربي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار. مطابع دار المعارف (مصر، ١٩٦٨) جـ١، ص ٢٠١.

[3] ينظر: الدكتور طه حسين: في الادب الجاهلي، ص ٣٣١.

المستحيل جمع تلك الافكار في تسلسل منطقي. وفي خطبه جزالة ووضوح واستعانة بالبراهين المقنعة [1] وعليه فنلاحظ، ان خطب أكثم تمتاز بالجمل القصيرة والحكم المتناثرة غير المتسلسلة والتكرار من أهم ما يميز أسلوب هذا الرجل

نموذج من إحدى خطب أكثم في قومه عند سماعه بالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام (يا بني تميم، لا تُحضروني سفيهاً، فانه من يَسمَع يَخَل ان السفينة يوهِنُ من فوقَهُ ويثبَّط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه وان رأيتم مني غير ذلك فقوِّموني استقم، ان ابني شافَه هذا الرجلُ مشافهةً وأتاني بخبره وكتابهُ يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق، ويدعو الى توحيد الله تعالى، وخلع الاوثان، وترك الحِلْفِ بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم ان الفضلَ فيما يدعو اليه، وان الرأي تركُ ما ينهى عنه، ان أحقَّ الناسِ بمعونةِ محمد ومساعدته على أمره انتم، فان يكن الذي يدعو حقا فهو لكم دون الناس وان يكن باطلا كنتم أحقَّ الناسِ بالكف عنه والستر عليه، وقد كان أُسقُف نجران يحدّثُ بصفته وكان سفيان مُجاشِع يحدث به قَبلَه وسمّى ابنه (محمداً) فكونوا في أمره أولا ولا تكونوا آخراً أأتوا طائعين قبل ان تأتوا كارهين، ان الذي يدعو اليه محمد لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً، أطيعوني واتبعوا أمري أسال لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً وأصبحتم أعزّ حيّ في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً فاني أرى أمرا لا يجتنبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز، ان الاول لم يدع للآخر شيئا وهذا أمر له ما بعده من سبق اليه غمر المعالي، واقتدى به التالي،

---

[1] ينظر: الدكتور احمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ٤٨.

والعزيمة حزم والاختلاف عجز، فقال مالك بن نويرة [1] قد خَرِفَ شيخُكم فقال أكثم ويلٌ للشجيِّ من الخليّ، والهفي على أمرٍ لم أشهدهُ ولم تسبقْني)[2]

وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ عدداً كبيراً من الحكم والامثال التي كان أكثم ابن صيفي يستخدمها في خطبه التي أطلقها أكثم منها قوله (لا تغضبوا من اليسير فانه يجني الكثير)، (آفة العلم النسيان، أكرم أخلاق الرجال العفو)، (ان المناكح خيرها الابكار ، لكل مقام مقال)، (رب قول انفذ من صول)[3]

---

[1] مالك بن نويرة: هو مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي، شاعر من ارداف الملوك في الجاهلية يقال له فارس ذي الخمار، ادرك الاسلام واسلم ثم ارتد عن الاسلام ولاه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) على صدقات بني يربوع وقتل من قبل ضرار بن الازور الاسدي بتوجيه من خالد بن الوليد نحو ١٢هـ/ ٦٣٤. الزركلي، الاعلام، جـ٦، ص ١٤٥)

[2] ينظر: الميداني مجمع الامثال، جـ٢، ص ٣٦٧.

[3] ينظر: ابن قتيبة عيون الاخبار ، جـ١، ص ١٠٨. ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، جـ٢، ص ص ١١-١٢. ابو علي القالي، الامالي، جـ٢، ص ٢٦و٧٥و١٦٨. د. مظفر جواد، المفصل في تاريخ العرب، جـ٨، ص ٧٩٤.

obeikandl.com